

سحر مصر

فى كتابات الرحالة الإنجليز فى القرن التاسع عشر



المشروع القومى للترجمة

تأليف: رشاد رشدى

ترجمة: جمال الجزيرى

مراجعة وتقديم: فاطمة موسى

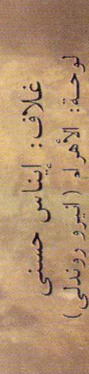
346





عالج رشاد رشدى - فى هذا الكتاب - عددًا وفيرًا من كتب الرحلة إلى مصر التى مازالت تمتع القارئ حتى يومنا هذا، يبرز بينها عدد من الأقلام النسوية سجلت المذكرات والرسـائل الشخصية أو دبجت مقالات مفصلة للنشر فى الصحـف والمجلات، وقد أدى تيسير السفر بالبواخر واستتباب الأمن فى ربوع مصر ونزول شركات نقل أجنبـية إلى الميدان بخطوط نقل بـرية ومائية منتظمة إلى زيادة عدد السائحـين الأثرياء الذين يقضون الشتاء فى الأقصر والصيف فى فرنسا.

كما يقدم وصفًا لآثار الإسـكندرية والمناطق والمحيطة بها، ويعرض موضوع حـريق مكتبـة الإسـكندرية وما ورد فى كتابات المؤرخين المسلمين من أخبـار تلك الأحـداث التى مازالت محل جدال حـتى يومنا هذا، كل ذلك بموضوعية وحياد علمى التزم به الرحالة حسب ما تيسر له وتحقق منه.



المشروع القومى للترجمة

سحر مصر

(فى كتابات الرحالة الإنجليز فى القرن التاسع عشر)

تأليف : رشـــاد رشـــدى
ترجمة : جمـــال الجـزيـرى
مراجعة وتقديم : فاطمة موسى



٢٠٠٢

المشروع القومى للترجمة
إشراف : جابر عصفور

- العدد ٣٤٦
- سحر مصر (فى كتابات الرحالة الإنجليز فى القرن التاسع عشر)
- رشاد رشدى
- جمال الجزيرى
- فاطمة موسى
- الطبعة الأولى ٢٠٠٢

ترجمة كاملة لكتاب :
The Lure of Egypt
تأليف : Rashad Rushdy, ph.D
الصادر عن : The Anglo - Egyptian Bookshop

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت : ٧٣٥٢٣٩٦ فاكس : ٧٣٥٨٠٨٤
El Gabalaya St., Opera House, El Gezira, Cairo
Tel : 7352396 Fax : 7358084 E.Mail : asfour@onebox.com

تهدف إصدارات المشروع القومي للترجمة إلى تقديم مختلف الاتجاهات والمذاهب الفكرية للقارئ العربي وتعريفه بها، والأفكار التي تتضمنها هي اجتهادات أصحابها في ثقافاتهم ولا تعبر بالضرورة عن رأي المجلس الأعلى للثقافة.

مقدمة

كانت مصر معبر الأوروبيين إلى الشرق، أوسطه وأقصاه، وكانت الإسكندرية قبل حفر قناة السويس هي ميناء الوصول للقادم من أوروبا تشاركها دمياط ورشيد، حتى شُقت ترعة المحمودية في عصر محمد على فتركز وصول المراكب التي تحمل المسافرين في الإسكندرية ، يقيمون فيها أياماً أو أسابيع كلٌ حسب هدفه من الرحلة، ثم تحملهم المراكب في ترعة المحمودية ثم فرع رشيد إلى ميناء بولاق في ضواحي القاهرة، ثم القوافل وفيما بعد عربات تجرها الخيل إلى ميناء السويس، حيث يستقلون المراكب الكبيرة إلى الهند والملايو وغيرها من بلاد الشرق الأقصى، وكان استعمار إنجلترا للهند قد استقر في النصف الثاني من القرن الثامن عشر بعد أن انتصرت جيوش شركة الهند الشرقية على الجيوش الفرنسية المنافسة وطردت فرنسا من شبه الجزيرة الهندية، وتمت لها السيطرة على الأمراء والملوك الهنود بضرب بعضهم البعض تارة والحرب السافرة تارة أخرى.

وشهدت مصر في الربع الأخير للقرن الثامن عشر سيلاً من المسافرين الإنجليز ينزلون إلى الإسكندرية ويعبرون مصر إلى الهند ليعملوا في صفوف الجيش ومناصب القضاء والإدارة أو للعمل بالتجارة و غيرها من المهن، الكل تدفعه الرغبة في الإثراء السريع، ويسجل عدد منهم أو من زوجاتهم أو أخواتهم مشاهداتهم في هذه البلاد البعيدة - غريبة العادات والمناظر- وقد ينشر المسافر مذكراته في كتاب عند عودته، أو يضمنها رسائله إلى أهله فينشرونها من بعده، ونجد فيها اليوم مادة ثرية بالمعلومات عن بلادنا وآثارنا كما رآها أولئك الوافدون الغرباء الذين كانوا يحرصون - بصرف النظر عن الهدف الأصلي للرحلة- على زيارة الآثار التي سمعوا عنها في القصص والمبالغات، وفي النصف الأول من القرن التاسع عشر زاد عدد الرحالة الأوروبيين الذين ينزلون الإسكندرية ويعبرون إلى القاهرة ثم يصعدون في النيل إلى الأقصر لمشاهدة الآثار بعد أن استتب الأمن في البلاد (تحت حكم محمد على) وزاد عدد الكتب المنشورة عن هذه الرحلات التي تكشف عن الصورة المسبقة التي يتوقعها الوافدون إذ تطأ أقدامهم أرض بلادنا للمرة الأولى، والخيال الرومانسي يربط الإسكندرية بالإسكندر وكليوباترا ، ويربط العرب بشخصيات من التوراة والإنجيل.

كانت كتب الرحالة مليئة بالمعومات والتواريخ والتعليقات والهوامش على ما ورد فى كتابات الأولين، والحكم الفلسفية المستقاة من مشاهدة أطلال الماضى تشهد بزوال المجد عن كل متكبر جبار، إذ كان همُّ الكاتب أن يضيف إلى حصيلة الفكر والمعرفة الإنسانية، إلا أن الباحث قد يقع على مذكرات أو رسائل مسافر عادى قليل العلم بكتابات الأولين، تسجل التجربة فى مواجهة هذا الآخر الغريب، والوقائع اليومية التى تكتنفها ، وقد يجد فيها القارئ الحديث عنصراً من الفكاهة، إذ تتحول المواجهة الحضارية إلى كوميديا.

كانت علاقة مصر بدول أوروبا وكذلك تاريخ الاستعمار الإنجليزى وتدخل القوى الأوروبية فى مصائرنا من أهم الموضوعات التى شغلت أساتذة التاريخ فى جامعاتنا، وقد عرج بعضهم على دراسة كتب الرحالة الأوروبيين ورسائل قناصل تلك الدول إلى حكوماتهم، لما تزخر به من مادة لا غنى عنها للمؤرخ، كما كانت كتب الرحالة من أهم الموضوعات التى عنى بها دارسو اللغات الأجنبية فى الجامعة المصرية؛ إذ أتيح لهم السفر إلى الخارج للتحضير لدرجة الدكتوراه بعد نهاية الحرب العالمية الثانية، حين بدأ تأهيل الباحثين المصريين لتولى شئون التدريس بالجامعة، فكانت كتب الرحالة الإنجليز موضوعا لبحثين من أول ما أنجز من هذه الرسائل: درس د. محمد أنيس كتابات الرحالة الإنجليز فى الربع الأخير من القرن الثامن عشر فى رسالة حصل بها على دكتوراه فى التاريخ من إنجلترا سنة ١٩٥٠، ودرس د. محمد رشاد رشدى أدب الرحالة فى النصف الأول من القرن التاسع عشر وحصل على دكتوراه فى الأدب الإنجليزى من إنجلترا فى نفس العام، كان موضوعها بالتحديد **الرحالة الإنجليز فى مصر فى عهد محمد على ١٨٠٥-١٨٤٧**، وكان التأريخ لحكم محمد على باشا وتوثيق فتوحاته وإصلاحاته من أول الموضوعات التى تصدى لها المؤرخون المصريون منذ افتتاح الجامعة المصرية فى العقد الثانى من القرن العشرين، وخروج أبناء الجامعة إلى جامعات أوروبا لاستكمال تأهيلهم فى مجال البحث الحديث، كان شفيق غربال عميد المؤرخين المحدثين فى مصر أول من فتح باب البحث فى تاريخ مصر الحديث فى دور الوثائق والمكتبات في بريطانيا وغيرها من دول أوروبا، فكانت رسالته المنشورة فى لندن سنة ١٩٢٨ بعنوان : The Beginnings of the Egyptian Question and the Rise of Mohammad Ali (1928) فاتحة ومرجعا لكل ما تلاها من دراسات فى العلاقات بين مصر وبريطانيا سواء كان هدف الدراسة سياسيا أو تاريخيا أو أدبيا.

حصر رشدى مئات الكتب التى كتبت عن مصر، ولم يقتصر على الكتب المنشورة فى عهد محمد على بالضبط بل تعداه بما قد يزيد على عقد أو عقدين؛ لأن الظاهرة الأدبية لا

يمكن تحديدها بنهاية عقد بالتمام والكمال، كان بحثه فى نطاق قسم الأدب الانجليزى بجامعة ليدز وتحت إشراف أستاذ كبير هو بونامى دوبريه وقد عمل أستاذاً للأدب الإنجليزى فى جامعة فؤاد (القاهرة) في العشرينيات، فلم يقتصر البحث عن التأريخ والببليوجرافيا، بل كان حتماً يقوم على التصنيف الأدبى ودراسة تطور الأسلوب ووجهة نظر المؤف، وأضاف الباحث غرضا جديداً من أغراض البحث لم يكن شائعا بعد بين النقاد العرب فى منتصف القرن العشرين، وهو ما يسمى اليوم بدراسات التلقى أو رصد استقبال العمل الأدبى أو الفنى عموما، مما يشكل اليوم مبحثا أساسيًا فى دراسة التذوق وعلم الاجتماع الأدبى والدراسات الإعلامية، كانت المجلات الفصلية والشهرية من دعامات سوق النشر والنقد فى بريطانيا فى القرن التاسع عشر، وكانت مادتها أساساً هى تلخيص الكتب في الموضوعات الجادة ونقدها، كان كتابها من كبار رجال الأدب يؤجرون بمكافآت سخية (يتعيشون منها فى الغالب) وتُنشر عروضهم المطولة غفلا من الإمضاء، توفيرا لحرية النقد والتقييم، وكان لكل حزب سياسى أو طائفة عقائدية أو جماعة من أى نوع مجلتها التى يعتمد عليها المشتركون فى تكوين الرأى عما يجرى نشره فى السوق، وتحصيل المعلومات الجديدة فى ميادين كثيرة من مجالات النشر، وقد يقتصر كثير من القراءة على قراء التلخيص المطول وتبنى رأى الناقد العمدة المجهول (فى الظاهر) وهذه الدوريات القديمة كما نسميها لا تخزن أو يلقى بها فى «الكهنة» بل تجلد وتفهرس، وكانت تشغل رفوف القاعة الدائرية (قاعة الإطلاع الرئيسة) فى مكتبة المتحف البريطانى سابقاً وقاعات الاطلاع فى مكتبات الجامعات البريطانية، قريبة إلى يد الباحث يجد فيها مرآة لفكر العصر موضوع بحثه، ودليلا ملموسا على تطور الذوق الأدبى والمعرفة العلمية من عصر إلى عصر.

قال رشاد رشدى يصف المنهج الذى اتبعه فى البحث : «كانت تلك المجلدات الثقيلة (من كتب الرَّحَّالة) - بعد أن حصرتها وصنفتها فى ببليوجرافيا مطولة - تمثل كتابا مغلقا أمام عينى، لا أجد منفذا لبحثه، حتى نصحنى الأستاذ دوبريه أن ألقى نظرة على رفوف مجلات العرض القديمة review ففتحت أمامى طاقة من نور، إذ نبضت كتابات الرحالة بالحياة أمام ناظرى، وأدركت المقصد والغرض من كتابتها فى ضوء توقعات القراء والناشرين، أدركت أن عديداً من تلك الكتب كانت تلبى حاجة ورغبة عند القراء، وأن الرحالة في العقود الأولى من القرن التاسع عشر كانوا يقيمون حسب مايضيفونه إلى حصيلة المعرفة الإنسانية عن بلاد بعيدة، لم تكن أصلاً فى نطاق اهتمامهم، حتى لفتت الحملة الفرنسية

الأنظار إليها وإلى أهمية موقعها بالنسبة للحفاظ على إمبراطوريتهم فى الهند، وإلى عجائب الآثار التى تقوم فى صحرائها، وإلى نيلها وخصب أرضها، وتغيرت النغمة بتغير بؤرة الاهتمام عندما كثر عدد الوافدين وفاضت الكتب بالمعلومات التى كثرت وتشعبت حتى أضحت من اختصاص الباحثين المختصين فى المصريات واللغات قديمها وحديثها، والمساحين والجغرافيين، والرسامين يصورون المعابد والآثار بدقة وإتقان.

نشر رشاد رشدى الكتاب المترجم بين يدينا عام 1950 بعد عودته من جامعة ليدز، وقد لخص فيه المادة البحثية التى أعدها لرسالة الدكتوراه، اقتصر فى هذا الكتاب على الملامح الرئيسة لتطور كتابات الرحالة عن مصر فى عهد محمد على الذى يكاد يغطى النصف الأول من القرن التاسع عشر بأكمله بدون أن يثقل النص بالهوامش والتوثيق، وقد كثر عدد الوافدين من أوروبا، وفتح محمد على بعد أن استتب له الأمر الباب على مصراعيه للتجار والمغامرين والخبراء من جنسيات أوروبا المختلفة، وإن وجد الفرنسيون عنده حظوة أكثرمن غيرهم.

شهد عصر محمد على دخول التلغراف وقاطرات البخار فى مصر، وقبض على زمام الحكم بيد قوية، وبعد القضاء على المماليك ساد الأمن فى البلاد ويسر الانتقال فى أنحائها، وشق الترع ورخص لشركات النقل باستخدام البخار فى السكة الحديد وفى النقل المائى، عمل لديه العديد من الخبراء (والمدعين) الأوروبيين فى مشروعات هندسية وتجارية وحربية، وكان يستقبل الزوار الأجانب بالمجاملة والترحيب إذا سمحت حالته الصحية والمزاجية.

أصبحت مصر بشمسها الدافئة وآثارها المبهرة موطن جذب للموسرين والمثقفين من الإنجليز، يقضون فها شهور الشتاء وقد يكملون الرحلة إلى فلسطين والشام أو إلى الهند إذا كانوا من أصحاب المناصب أو الأعمال، وكثرت فى كتابات المختصين الشكوى من «الشعبية» التى لحقت بموطن الآلهة والفراعين. ذكر برين دافيز الأستاذ بجامعة القاهرة سابقاً فى بحث له عن هنرى صولت القنصل البريطانى الذى تخصص فى استجلاب الآثار المصرية وشحنها إلى بريطانيا بتمويل من كبار القوم من هواة جمع النفائس والآثار أن مصر أضحت تدوسها أقدام الوافدين بالمئات، حتى إن الكونت فوربان مدير المتاحف الملكية فى فرنسا شكا أن رحلته تصعيدا فى النيل إلى الأقصر أفسدتها مجاورته لدهبية لورد بلمور بملحقاتها من أطباء ومربيات وإمدادات، وأن تأملاته فى أطلال طيبة المهيبة اضطربت لمرأى دادة إنجليزية ترتدى صيديرية وردية وتحمل شمسية شفافة (كأنها تسير

في هايد بارك).

جذبت مصر وآثارها عدداً من الفنانين التشكيليين أثار إعجابهم ما عرضه المتحف البريطانى من آثار غنم الإنجليز بعضها من الفرنسيين وفقا لشروط جلاء الجيش الفرنسى من مصر عام 1081 (أهمها حجر رشيد) وما تولى صولت وغيره من المندوبين شحنه من مصر، كما بهرتهم القاعة المصرية التى افتتحها بلزونى فى بيكاديللى، كما بهرت كل من شاهدها من المعاصرين كما يرد فى الفصل الثالث من هذا الكتاب. نظم رسام يدعى روبرت هاى «بعثة مصرية» من عدد من الفنانين تعلموا اللغة العربية وارتدوا زى المصريين وتخصصوا في رسم وتسجيل الآثار والمناظر فى الصعيد والقاهرة 1826- 1838(انظر تحت اسم Hay, Robert ص 294-292 من الجزء الأول من **ببليوجرافيا مصر والسودان من العصور القديمة حتى 1885 وضعها الأمير إبراهيم حلمى** Prince Ibrahim Hilmy, Bibliography of Egypt & the Sudan....., 1885, 2 vols

******

إدوارد وليم لين و كتاب وصف مصر Descrittion of Egypt

لاشك أن كتاب لين الشهير «أخلاق المصريين المحدثين وعاداتهم» (1836) يمثل محطة هامة في تاريخ الكتابة عن مصر فى القرن التاسع عشر فلم تكن مجرد رحلات عابرة للترفيه أو التجارة أو السياسة، بل كانت رحلته منذ البداية موجهة للدراسة والاستكشاف وأثمرت فى النهاية حصيلة فذة بكل المعايير، كان لين أحد الفنانين الذين شاركوا فى أعمال الرسم والتسجيل فى الصعيد فى مجموعة روبرت هاى، وقد جمعت بينهما فيما بعد صداقة دامت لسنوات العمر.

كان لين فى شبابه فناناً فى حرفة إخراج الكتب يتدرب على الطباعة بالحفر على النحاس، أغرم بمصر والمصريات وقرأ كل ما أتيح له من رحلات ودراسات عن مصر، وشرع فى تعلم اللغة العربية، ثم أصيب بداء الصدر وبعد شفائه شد الرحال إلى مصر فوصل إلى الإسكندرية فى سبتمبر 1825، ومكث فى مصر 3 سنوات زار فيها الوجه القبلى والنوبة مرتين مصعداً فى دهبية فى النيل كدأب الرحالة والمسافرين عموما إلى الصعيد فى ذلك الوقت، وكان هدفه تأليف كتاب عن الرحلة يقدم المعلومات محققة عن مصر ونيلها واقتصادها وتجارتها من واقع دراسته وخبرته المعاينة، وكان كتاب **وصف مصر** الذى صدر بالفرنسية متضمناً أبحاث ودراسات علماء الحملة الفرنسية التى أجروها فى الموقع قد صدرت الأجزاء الأخيرة منه سنة 1828 عن المطبعة الملكية فى باريس مما

أثار اهتمام القراء بالمصريين المعاصرين، ولم يقتصر اهتمامهم على المصريين القدماء، فكثر ذكر سلوك من يتعامل معهم الرحالة من عمال وتجار، كما كثر وصف الملابس والأزياء.

عادل لين إلى إنجلترا في يونيو 1828 وقد حمل معه مادة وافية للنشر: كتاب رحلات من وحى الخبرة والتجربة الذاتية، موثق بالخرائط واللوحات من رسم المؤلف، ومدعم بالمراجع الكلاسيكية المعتمدة بالإضافة إلى مراجع عربية أبرزها **خطط المقريزى وعجائب الآثار للجبرتي.**

عكف لين على إكمال فصول الكتاب في صيغتها النهائية وقدمه للناشر جون مرى الذى عرضه على مستشاره الأدبى، فقرأه المستشار ورحب به وإن طلب بعض التعديلات والزيادات فأعاد لين كتابة السفر كاملاً إلا أن الصيغة الثانية ظلت محل استشارة وأخذ وعطاء، وكانت العقبة الكؤود هي ارتفاع التكلفة لطول النص وكثرة عدد اللوحات والرسومات الشارحة. مضت ثلاث سنوات تغيرت فيها ظروف السوق، وبدأت حركة المطالبة بالإصلاح السياسى بتغيير قانون الانتخاب وتوسيع قاعدة الناخبين لتشمل طبقات وطوائف كانت محرومة من حق الانتخاب، وصدر القانون الجديد في النهاية عام 1832 مخيباً لآمال كثير من المطالبين بالإصلاح، كل ذلك غطى على اهتمامات القراء وقيد من حرية الناشر في المغامرة بإصدار كتاب باهظ التكلفة، والأغلب ألا يجتذب أعداد القراء في ظروف سياسية تموج بالاضطراب، بعد أن غاضت سوق الكتب بكتابات الرحالة ومحاولات فك طلاسم اللغة الهيروغليفية، لم ييأس لين من نشر كتابه بما له من أهمية، وإن فشل في أن يجد ثريا مثقفا يتولى تمويل النشر، نصحه ناشر حصيف أن يستخلص من مادة الكتاب ما يخص حياة المصريين المعاصرين، وكان قد أفرد لها فصولاً ثلاثة في **وصف مصر،** حورها لين ووضع مخططا للكتاب الجديد ووقع عقداً تسلم بمقتضاه مقدم أجره وحمله وعاد إلى مصر في ديسمبر 1833 ليستوفى مادة الكتاب الجديد ويدققه. أقام في القاهرة حتى خريف 1835 حينما أكمل كتابة النص الجديد عن المصريين المحدثين. في لندن استغرقه إعداد وطباعة الألواح والرسومات التفصيلية المصاحبة إلى أواخر 1836 حين صدر كتابه - برعاية وتمويل جمعية نشر المعارف المفيدة - ليشكل علامة في تاريخ الكتابات والدراسات التي نشرت عن مصر في ذروة حكم محمد على، وقد اختار له عنوان **سلوك المصريين المحدثين وعاداتهم** مقابل كتاب صديقه جاردنر ولسون عن **السلوك والحياة الخاصة لدى قدماء المصريين.**

نجح كتاب لين عن المصريين وأصبح مصدراً مهماً للمعرفة بتفاصيل الحياة اليومية فى القاهرة بين طبقات المصريين وليس المماليك أو الأرستقراطية التركية الحاكمة، إلا أن لين ظل على ولائه لمشروعه الأول، وقام فى السنوات التالية بإعداد صيغة منقحة لكتاب **وصف مصر** يمكن أن نعتبرها الصيغة - بعد وفاته- المعتمدة للكتاب، ظلت فى حوزته (أهدتها أو باعتها) أرملته لمكتبة المتحف البريطانى حيث اطلعنا عليها، وكذلك كل من أجرى بحثًا عن لين أو عن كتابات الرحالة، اطلع عليها رشاد رشدى أثناء بعثته فى جامعة ليدز فى أخريات الأربعينيات من القرن العشرين، واطلعت شخصياً عليها فى الخمسينيات أثناء بعثتى فى جامعة لندن، واطلعت عليها فى الستينيات ليلى أحمد مبعوثة من جامعة الأزهر بعد أن أشرت عليها باتخاذ حياة لين وإسهامه الأدبى والعلمى موضوعا للدكتوراه التى حصلت عليها من جامعة كامبردج، فكانت أول من درس مخطوط الكتاب وأورد فهرسه وفصل محتوياته.

وقد نشرت ما استخلصته من دراستها للدكتوراه فى كتاب عن **إدوارد وليام لين : حياته وأعماله**، أصدرته دار لونجمان بالتعاون مع دار مكتبة لبنان ١٩٧٨، إلا أنها اتجهت بعد ذلك إلى مجالات للدراسة ألمع بريقا وأكثر رواجًا.

ظل كتاب **وصف مصر** مخطوطًا ثمينًا حبيس المكتبات فى إنجلترا : النسخة الأولى فى مكتبة البودليان بأكسفورد والثانية فى مكتبة ا لمتحف الأشمولى بأكسفورد والنسخة الثالثة والمعتمدة للنشر التى اطلعنا عليها جميعا بقسم المحفوظات بالمكتبة البريطانية فى لندن (المتحف البريطانى سابقًا)، حتى تعرض له الأستاذ جاسون تومبسون الأستاذ المشارك حاليا بقسم التاريخ فى الجامعة الأمريكية بالقاهرة، وبتمويل ومساندة من عدد من مراكز البحوث والجامعات الأمريكية، وتوفر على دراسته سنوات توجت بصدوره عن دار النشر بالجامعة الأمريكية فى القاهرة سنة ٢٠٠٠، فى ٥٨٥ صفحة من القطع الكبير، محققًا ومزوداً بجميع اللوحات والخرائط التى وضعها له لين وعددها مائة وستون.

يكتشف القارئ منذ بداية مراجعته للكتاب جلد المؤلف وقدرته الفائقة على الملاحظة والدراسة، وسعة اطلاعه وشمول مراجعة، كما تشكل اللوحات والخرائط وثائق مهمة عن تاريخ الآثار والمناطق الأثرية فى مصر.

وصل لين بكتاب الرحلة عن مصر إلى الذروة من حيث الدقة والإجادة فى تصوير بلادنا فى فترة زمنية ذات دلالة قصوى من حيث بداية الانفتاح على الآخر (أوروبا بالذات)، ودخول التكنولوجيا ومكتشفات العلم الحديث فى مشروعات الدولة وتشكيل حياة شعب

عريق من أبناء الفراعنة العظام. ومن الواضح من مسيرة الكتاب فى حياة مؤلفه، أن لين فى دأبه على تحقيق الكمال من حيث **صدق المعلومات ويقين الفائدة** مع اضطراره للاستجابة لطلبات الناشر ومستشاريه فاته تحول السوق، وإن لحق به عندما أصدر كتابه عن المصريين المعاصرين وسلوكهم وعاداتهم فنجح نجاحًا فائقًا، وكان من الواضح أنه **يلبى حاجة** عند جمهرة القراء، الذين ظلوا على شغفهم بمصر وإن حولوا اهتمامهم وفضولهم إلى سكانها وأهلها. ضمن لين كتابه عن المصريين المحدثين سجلا مفصلا لمأكل وملبس أهل القاهرة وعاداتهم فى المناسبات الدينية والاجتماعية والأسرية المختلفة، مقرونة برسوم توضيحية لطرز البناء والمفروشات والملابس وأدوات الطعام وطرق طهيه مما يتعلق بمعيشة الناس العاديين، مما لا يخطر على بال أصحابها أن يسجلوه بالتفصيل، كل ذلك فى عصر سابق على التصوير الفوتوغرافى في تطوره، وما تلا ذلك من مخترعات سهلت التسجيل وقربت البعيد وجعلت المعرفة بصور الآخرين وسلوكهم فى متناول القارئ والمتفرج بغير حاجة للمسافر العابر أو الرحالة المتأنى.

***

ذهب رشاد رشدى فى دراسته التى بين يديكم إلى أن كتاب لين لعب دورًا مهمًا فى تشكيل كتابات الرحالة عن مصر فيما تلاه من عقود؛ إذ وقف حجرًا أو أثرًا يشهد على اكتمال المعلومات ودقتها، وأطلق سراح الكاتب الذى أتى بعده فلم يعد مكلفًا ولا ملتزمًا بشيء فانثنى على نفسه يرصد مشاعره وانفعالاته، وتلقى الأنا الفردى المتميز للتجربة والانطباع، ينكب بعد عودته على مخطوطه لا ليوثق أو يدقق بل ليثريه بخياله ويصقل تعبيره ويشذبه، وبذا دخل كتاب الرحلة فى مجال الأدب الباقى بصرف النظر عن تغير المناظر وصور الحكم وربما الطبائع والأعراف.

عالج رشدى فى الثلث الأخير من دراسته عددًا وفيرًا من كتب الرحلة إلى مصر مازالت تمتع القارئ حتى يومنا هذا، يبرز بينها عدد من الأقلام النسوية سجلت المذكرات والرسائل الشخصية أو دبجت مقالات مفصلة للنشر فى الصحف والمجلات، وقد أدى تيسير السفر بالبواخر واستتباب الأمن فى ربوع مصر ونزول شركات نقل أجنبية إلى الميدان بخطوط نقل برية ومائية منتظمة إلى زيادة عدد السائحين الأثرياء الذين يقضون الشتاء فى الأقصر والصيف فى فرنسا، وبازدهار الطبقة البورجوازية فى بريطانيا منذ العقود المتوسطة من القرن ١٩ واتخاذ كثير من أبنائها صفة الجنتلمان المثقف الذى يقلد سلوك الأرستقراطية فى السفر والتجوال فى رحلة كبرى يختم بها مرحلة الشباب ويكتسب

التجارب والخبرات التى تثريه وتصقله تمهيداً لتحمل المسؤوليات فى الأسرة والمجتمع والأعمال! نظمت شركات البواخر رحلات تجوب موانئ البحر الأبيض المتوسط، ليعايش المسافرون تجربة «اللفانت» ويفوزوا بخبرة الشرق الخلاب.

من الطريف والمفيد أن نقارن الفصلين فى مفتتح **وصف مصر** خصصهما لين لمدينة الإسكندرية عندما هبط إليها فى سبتمبر ١٨٢٥ وتجربة الكاتب وليم ماكبيس ثاكرى فى الإسكندرية فيما يمكن أن نسميه أول رحلة إعلام سياحى إلى مصر سنة ١٨٤٤ بعد وصف مختصر للرحلة من لندن إلى الإسكندرية على ظهر سفينة شراعية استغرقت شهرين (١٨ يوليو ١٨٢٥ - ١٩ سبتمبر من نفس العام) لا يستغرق وصفها فى مقدمة الكتاب أكثر من صفحة، يصف لين الإسكندرية وضواحيها وآثارها وسكانها فى فصلين قصيرين، أورد على رأس كل فصل النقاط الرئيسة التى يعالجها.

الفصل الأول : الميناء ومدينة الإسكندرية :

المنظر العام لساحل الإسكندرية - الميناء القديم - وصولنا إلى الميناء الجديد - أول زيارة للمدينة - وصف شارع مزدحم - شجار فى مقهى ينتهى نهاية فاجعة - حى الأوروبيين - وصف الميناء الجديد والفنار - وصف المدينة فى اختصار - المناخ -... إلخ.

وفى الحديث عن منارة الإسكندرية يضمن ما ورد عنها عند المقريزى والسيوطى وغيرهما من الكتاب العرب ويختم الفصل الأول برأيه المتحفظ فى المدينة: «ترجع أهمية الإسكندرية إلى أنها ثغر ومفتاح لمصر إلا أنها لا تشكل مكانًا جذابًا للإقامة، فهى مدينة فقيرة تعسة(!!) فجوها ليس مما يفيد الصحة، ولا تقع العين فيها إلا على البحر والصحراء. وقد مدح القدماء جوها وشرحوا فوائد الصحة فيه، وأوضح المؤرخ القديم سترابون أن جوها صحى شاف لأنها كالجزيرة يحيطها من كل جانب البحر من ناحية وبحيرة مريوط من ناحية أخرى، ويرجح أن فساد جوها فى عصور تالية نتيجة لتحول بحيرة مريوط إلى مستنقع مالح».

يقدم لين فى الفصل الثانى وصفًا لآثار الإسكندرية والمناطق المحيطة بها، ويعرض موضوع حرق مكتبة الإسكندرية وما ورد فى كتابات المؤرخين المسلمين من أخبار تلك الأحداث التى ما زالت محل جدال حتى يومنا هذا، كل ذلك بموضوعية وحياد علمى التزم به الرحالة المستشرق حسب ما تيسر له وتحقق منه، إلا أن تلك الرحلة بعد مرور ما يزيد على عقد من الزمان على تحققها استعصى على كاتبها أن يجد من يخرجها للناس لارتفاع تكلفتها وتغير توجه الناشرين فى إنجلترا بتغير ما يقبل عليها لقراء بعد أن فتح محمد على

الباب فى مصر على مصراعيه كما أسلفنا، ليس فقط للأجانب عابرين أو مقيمين، بل لأصحاب المشروعات والمخترعات الجديدة، مما يسر الرحلة إلى مصر ووضع الأساس لحركة السياحة بغرض المتعة بصرف النظر عن الفائدة، ولكنها وجدت اليوم طريقها إلى النشر بفضل التمويل الجديد، ومن الطريف أن نقارن بين فصلى لين عن مدينة الإسكندرية كما عاينها فى سبتمبر 1825 وعند رحيله عن مصر فى المرة الأولى بعد ثلاث سنوات، بما ورد فى كتاب وليم ثاكرى فى كتابه عن رحلته (1844).

***

كانت ترعة المحمودية من أهم فروع شبكة الترع والقنوات التى شقت فى عهد محمد على، وازدهرت مدينة الإسكندرية بنمو التجارة مع أوروبا وتركزت فى مينائها حركة الاستيراد والتصدير بعد أن كانت تشاركها دمياط ورشيد، إذ تربطها ترعة المحمودية بالمراكز التجارية بالدلتا، ومنها تسير المراكب فى النيل حتى القاهرة وإلى أقصى الصعيد جنوباً، زاد عدد الأوروبيين الذين اتخذوا من الإسكندرية موطنا وخاصة من اليونانيين والإيطاليين، حتى بلغ عددهم فى آخر عهد محمد على ستة آلاف ، فأصبحت الإسكندرية عروس البحر الأبيض : مدينة أقرب فى نظر الوافدين إلى مرسيليا أو جنوا منها إلى القاهرة.

وعندما بدأ استخدام البخار فى النقل البحرى بانتهاء العقد الثالث من القرن تضاءلت المسافات وزاد عدد الرحالة الذين يقصدون مصر والشام للفرجة على الآثار والاستجمام بالجو الدافىء شتاء، وإن ظلت مصر هى المعبر الأمثل للعاملين فى الهند والمستكشفين فى أفريقيا، وكانت شركة بى آند أو (P&O) من أول شركات الملاحة التى نظمت رحلات بالباخرة تعبر مضيق جبل طارق إلى مالطا (وكانت دائماً محطة التموين الرئيسة للبحرية الإنجليزية فى البحر الأبيض المتوسط فى عهد الشراع والفحم والبخار على السواء) ومنها إلى الشرق الخلاب، كانت الباخرة تجوب موانئ الإمبراطورية العثمانية من أثينا إلى أزمير ثم القسطنطينية تتبعها موانئ الشام : بيروت ويافا ثم الإسكندرية فى نهاية المطاف، حيث ترسو الباخرة أياما تتيح للمسافرين الفرجة ليس فقط على الإسكندرية بل على القاهرة وأهرام الجيزة كذلك، وهى نفس الجولة التى ما زالت شركات السياحة تقدمها حتى اليوم.

كان وليم ثاكرى أديباً يشتغل بالصحافة الأدبية من موقع الجنتلمان، أى أنه ينتمى إلى الطبقة العليا من المثقفين الذين يرتادون نوادى الطبقات الراقية ولا يعتمدون ماليا على دخلهم من الكتابة، فدعاه صديق من أحد النوادى المرموقة إلى أن يصحبه فى رحلة

بالباخرة إلى ذلك الشرق الخلاب على أن تتحمل الشركة نفقات سفره وإن لم يذكر ذلك صراحة، كل ذلك قبل موعد الرحلة بأقل من يومين، وسوف يجوب البحار التى صارعها يوليسيس فى الأودسا طوال عشر سنوات، ويعود إلى وطنه وأهله بعد شهرين (ثلاثة فى الواقع).

وبطبيعة الحال كتب ثاكرى مذكراته عن الرحلة وقدم لها بإهداء الكتاب إلى قبطان الباخرة التى حملتهم جميعاً إلى الإسكندرية، وعادت بهم سالمين سعداء إلا أن ثاكرى لم يكن كاتب دعاية، بل كان أديبا يتقن السخرية والمفارقة ولكنها سخرية لطيفة تجذب القارئ ولا تنفره، سمى كتابه عندما نشره فصولا بعد عودته مباشرة **هزليات فى رحلة من كورنهيل إلى القاهرة العظمى** وكورنهيل اسم شارع فى حى المال والأعمال فى لندن وهو اسم المجلة التى كان الكاتب يحررها، وكانت صفة العظمى تطلق على مدينة القاهرة فى كتابات الرحالة فى القرن الثامن عشر وما تلاه.

قدم ثاكرى «لمحة» من الشرق فى وصفه لأزمير ثم إستامبول، وكان الكتاب ينشر فصولاً فى المجلة فعمل الكاتب على أن يقدم فى كل فصل لوحة مكتملة ينتقى لها خاصية تميزها، وتصبح دالة عليها فاختار للإسكندرية عناصر الازدحام واختلاط الجنسيات وغلبة الطابع الأوروبى على كثير من مظاهر الحياة، وكلها عناصر تشجع المسافر وتحرص دعاية شركات السياحة على إبرازها اليوم إذ تدعو زبائنها إلي مشاهدة بلاد غريبة وغرائبية مع تأكيد الطابع الحديث أى الأوروبى فى الخدمات (الفنادق ووسائل النقل) ثم الطعام الذى اعتاده المسافر منذ طفولته، وتوفر من يتحدثون اللغة فى كل مكان.

يفتتح الكاتب الفصل الرابع عشر الذى يسميه «من يافا إلى الإسكندرية»

«وصلنا إلى مدخل الميناء ولاحت لنا أبراج الإسكندرية ومبانيها ترتفع داكنة أمام الشمس الغابرة عندما سمعنا طلقة مدفع تسرع إلينا عبر المياه الذهبية الهادئة، واتضح لنا للأسف أننا لن نستطيع النزول إلى البر ذلك المساء..

لكن فى الصباح الباكر دخلنا الميناء وكان مزدحماً بالمراكب من كل نوع، وقفنا بجانب هياكل ضخمة سوداء: مراكب حربية قديمة من ذات الشراع يرفرف عليها علم أحمر حائل اللون عليه الهلال والنجمة (علم تركيا) ، زوارق يسيرها بحارة فى قلنسوات حمراء، - والقبطان وكذلك موجه الدفة يرتدى الطربوش ولحيته كثيفة طويلة - تتحرك سريعا بين تلك الهياكل القديمة.. أضف إليها أسطولا غفيرا من مراكب بلاد مختلفة يرفرف عليها علم أمريكا أو فرنسا أو بريطانيا، وبواخر سريعة لشركات إنجليزية وفرنسية تندفع داخل

الميناء أو خارجة منه، كانت هناك باخرة أخرى لشركتنا وإلى جانبها بواخر للباشا لا تختلف فى شكلها عن البواخر المسيحية (أى القادمة من أوروبا)، ولكن الحروف التركية المرسومة على المقدمة تبدو غريبة فى عيوننا، وكذلك تلك الحروف العربية بذيولها الطويلة مكتوبة بلون الذهب على عجلة التجديف وكأنها الهيروغليفية لا نفهم منها شيئاً.. وكنت طوال الليلة السابقة أعد نفسى بمساعدة سيجار أدخنه وتأملات فى ضوء القمر على ظهر الباخرة أن استحضر المشاعر التى ستنتابنى عندما تطأ قدمى أرض مصر.. لابد أن عمود بومبى (عمود الصوارى) يقف هناك كالجبل فى سهل أصفر، تحيط به غابة صغيرة من المسلات فى ارتفاع أشجار النخيل، وصف من تماثيل أبى الهول ساكنة الوجوه تتأمل النيل، وكانت صورة من قصيدة للشاعر تنيسون كشفت عن جوهر مصر فى خيالى هى «وجه ممنون الجبار هادئ» وكنت أعد نفسى لأحملق فى ذلك بعجب الأهرام ورهبة الهيروغليفية، يشبه رصيف الميناء فى الإسكندرية الرصيف فى ميناء بورتسموث مع إضافة عدد من الوجوه السمراء متناثرة فى الزحام، هناك بائعو المشروبات وتجار لوازم المراكب، وحوانيت تبيع زجاجات الجعة وبحارة يتسكعون وعربات حنطور تبحث عن زبائن، وكورس زاعق من الحمارة يصيحون «تركب يا سيد! حمار يا سيد! اسمع سير، سير فى إنجليزية فصيحة، يبدون أية أفكار رومانسية..».

بعد وصف تجربة ركوب الحمار إذ يشعر بالخجل من «النزول» إلى ظهر ذلك الحيوان النحيل ويفاجأ بانطلاقه بسرعة لم يتوقعها، يصف ثاكرى شوارع الإسكندرية :

«البيوت التى تمر بها ليست من طراز شرقى، والشوارع مزدحمة بخليط من السكان : يهود وأرمن وأوروبيين جبابرة فى العمل ويونانيين بسراويلهم الواسعة، وتجار من النوع البدين حليق الذقن المهندم، مثلهم مثل تجار البورصة فى لندن أو باريس فى البدانة والهندام، أما أهل البلد، فيلاحظ الغريب (كما فعل الخليفة فى ألف ليلة وليلة فى قصته مع المتشردين الثلاثة) يلاحظ أن أكثرهم عور بعين واحدة، إنه الرمد الذى يطيح بإبصارهم..

بعد مسيرة خمس أو ست دقائق على ظهر الحمار تصل إلى الحى الأفرنجي والشارع العريض الذى يشبه مرسيليا حيث الفنادق الرئيسة وبيوت التجار وحيث يسكن القناصل ويرفعون أعلامهم، وأفخمها قصر قنصل فرنسا العام، على النقيض من مسكن القنصل الإنجليزى، فهو متواضع يعفى مواطنيه من الصعود للدور الثانى».

يمضى الكاتب فى وصف فرحة المسافرين بالدخول إلى قنصلية بلادهم حيث ترقد رسائل الأهل فى انتظارهم، فيورد أمثلة لتأثر المسافرين وهم يقرأون أخبار الأهل ليخرجوا

بنتيجة أن السفر يشحذ عواطف المحبين ويشعرنا بأهمية من خلفناهم فى الوطن، وقد نجد فرصة لتذكرهم والتفكير فيهم على البعد أكثر مما نجد ونحن مشغولون بأمور العيش بين ظهرانيهم، ولعل الكاتب استخدم قدراته الروائية فى هذا الفصل ليخرج بالنتيجة الإعلامية المطلوبة وهى التشجيع على السفر والترحال.

يواصل وصف خبراته فى الإسكندرية :

«لأن الأماكن التى تثير الاهتمام فى الإسكندرية قليلة وزيارتها سهلة، تجولنا فى الأسواق (البازارات) وهى تبدو شرقية فعلا أكثرمن الحى الأفرنجى بسكانه الانجليز والفرنسيين والإيطاليين وحضارة بابل التى تسود فيه. من وقت لآخر نمر بأحد البيوت الكبيرة مطلية بالجير الأبيض، لا يبدو عليها إتقان صنعة البناء بنوافذ مشربية وزوج الحراس على الباب فى أقبح زى خدم رأيته فى حياتى، وقد يكون البيت قصر أحد الضباط فى بلاط الباشا أو واحد من أبناء الوالى العديدين..

ذهبنا لزيارة المسلة التى أهداها محمد على لحكومة إنجلترا، ولم تظهر الحكومة الانجليزية سرعة ملحوظة فى قبول الهدية، ترى ذلك العمود الحجرى الضخم راقدا على الأرض لا يحفل أحد بقيمته، يتقافز الأطفال حوله ويتمرغون فى التراب والأقذار، يمر به عرب وزنوج ومكاريون لا يحفلون بالأثر الضخم فى سقطته، مثلهم مثل الحكومة البريطانية التى لا تحفل بتسجيل انتصار حملتها فى مصر سنة 1801 (عندما ساعد جيش إنجليزى فى إخراج جيوش نابليون من مصر)، وليس من الولاء أن نظهر حماسا للمسلة ما دامت حكومتنا تعامل الموضوع بهذا البرود، وليتهم يقدمون للحكومة المصرية هدية ذلك العمود القبيح القائم فى ميدان ترافلجار فى لندن، فيرقد العمودان بقبحهما وضخامتهما جنبا إلى جنب هنا فى التراب . (هذه المسلة ذكرها لين وغيره وهى المسلة القائمة على ضفة نهر التايمز اليوم)، زرنا عمود بومبى وهو ليس أكبر من النصب التذكارى فى تشارنج كروس (لندن)، ولم يفلت هذا العمود الموقر من سوء المعاملة إذ يزوره بحارة السفن من كل جنس حتى أسافل الكوكنى من أهل لندن، وقد تجرأ أحد أولئك البلطجية وكتب بطلاء أسود اسم شركة دارين للورنيش! وغطى بذلك على النقوش التى ذكرها ويلكنسون فى كتابه (تاريخ قدماء المصريين).

كان أمتع ما شاهدت فى الإسكندرية زنجيا (لعله يقصد أهل النوبة) فى قرية من الأكواخ على مشارف الإسكندرية، تزدحم بالوجوه السعيدة من كل سن ونوع طلتها الطبيعة بطلاء أشد سواداً مما عهدنا. كانت الوجوه سعيدة يتسع شدقاها عن ابتسامة

والأب فى لون الأبنوس وشعره المجعد أبيض كصوف الخروف فى غنائيات فلوريان الرعوية.

كانوا يرقصون على عزف طبلة وبايجوا صغير (لعله يقصد ربابة) ويغنون معا فى كورس نغما غريبا علينا ولكنه واضح الإيقاع ممتع حقا، كانوا يرقصون فى دائرة يهرع إليهم المزيد من كل الاتجاهات ينضمون إلى الحلقة ويبادرون بهز رؤوسهم والتلويح بأيديهم اليسرى واللعب بالعصى الرفيعة التى يحملها كل منهم، والجميع يغنون بكل ما أوتوا من قوة..

فى ختام الفصل يقول الكاتب : «قمنا بجولة على المقاهى فى المساء، زرنا المقاهى الأوروبية الراقية حيث يقدمون لك المثلجات والجرائد الفرنسية، والمقاهى فى وسط البلد يؤمها اليونانيون والأتراك وعامة الناس، يجلسون على كراسى متعبة، ويشربون القهوة فى لون الطين ويستمعون لجوق تعس من الموسيقيين يداومون العويل بتنويعات من الغناء ساعات، إلا أن الأغانى الحلوة التى سمعتها من السود حالت بينى وبين الاستمتاع بتلك الموسيقى البغيضة» هكذا ختم وليام ثاكرى ذلك الفصل القصير عن الإسكندرية لينتقل إلى وصف الرحلة فى ترعة المحمودية ثم فى النيل على مركب لنفس الشركة يجرها رفاص بالبخار.

كانت الإسكندرية مجرد مدخل للرحلة إلى القاهرة وأهرام الجيزة، وبعد قضاء يوم وليلة على ظهر المركب النيلى تلوح الأهرام فى الفجر لعيون المسافرين المتلهفين لرؤية عجيبة من عجائب الدنيا السبعة، وبعد وصف بديع لنور الفجر الوردى ينتشر على الحقول التى ينحسر عنها ماء الفيضان ويخضب صفحة النهر وظهر المركب بالحمرة يختم الفقرة :

« .. كلما ارتفعت الشمس تلاشت الحمرة التى تخضن وجه الصباح وبدت السماء صافية خالية من السحب، والنهر وما يحيطه من مناظر واضحة فى ضوء ساطع، وبعد ساعة أو ساعتين نظرنا أمامنا فرأينا الأهرام. تخيل مشاعرى يا صديقى، اثنين كبار وواحد صغير!!» وحديث ثاكرى عن خبرة الأهرام شيق اهتم به الدارسون لكتب الرحلات لأن الكاتب يستخدم فيه نفس التكنيك الذى استخدمه فى وصف تجربته فى الإسكندرية من نزع الأفكار الرومانسية المسبقة عن الشرق وإبراز التناقض الفكاهى فى كثير من الأحيان بين الخيال الرومانسى والتجربة فى الواقع، على أن الكاتب لم يخيب ظن الشركة التى مولت الرحلة، فالكاتب يشهد بطرافة التجربة وعظمة ما حققته شركة الملاحة لزبائنها، لكنه مطبوع بشخصية المؤلف الساخرة المتأملة مما يضفى عليه قيمة أدبية فريدة، ولا يفوت

الكاتب مغزى التغير الجذرى فى سرعة السفر من التقريب بين الشعوب والعقائد، يقول فى صفحة الختام : «بعد أسبوع نزلنا إلى الحجر الصحى بميناء مالطة حيث قضينا ١٧ يوماً، وحتى هذا السجن يكاد أن يكون تجربة لطيفة، راحة واستجمام بعد فرجة وحركة لا تنقطع طوال شهرين، ففى الفترة بين ٢٣ يوليو و٢٧ أكتوبر شاهدنا عدداً من المدن لم يسبق أن زارها مسافر قبلنا فى مثل ذلك الزمن.. ولعل خير وأسعد ما تخلفه الرحلة من ذكريات كانت لساعات الليل على ظهر الباخرة، ترقب النجوم تلمع فى السماء والساعة تدق ساعة بساعة والأفكار معلقة بالأهل والوطن البعيد. وفى مرة سمعت صوت المؤذن عند الشروق يرتفع من مئذنة فى القسطنطينية صائحاً : حى على الصلاة، وصوته الحاد يرن فى الهواء الصحو، فرأيت فى نفس الوقت العربى يسجد ويصلى، والكاهن اليهودى ينحنى على كتابه يتعبد لخالق التركى (أى المسلم) واليهودى.. وأرى باخرتنا تعبر البحار فى يوم الأحد ونحن نقيم عليها صلواتنا؛ فالجميع كل على طريقته ينحنون أمام الله يعبدونه فى سمائه وليس فوقه أحد».

وهذا مثال لما أورده مؤلف الكتاب الذى بين يدينا من خروج كتاب الرحلة من دائرة الإعلام إلى دائرة العمل الفنى المطبوع بشخصية الأديب/ الرحالة.

فاطمة موسى

نوفمبر 2001

الفصل الأول

المقدمات

كان عدد الكتب المؤلفة عن مصر باللغة الإنجليزية فى القرن التاسع عشر فى زيادة مطردة عن أى قرنٍ سابقٍ مما يكشف عن اهتمامٍ واسع ومكثفٍ يتخذ أشكالاً متعددة، ونعالج فى الفصولِ التاليةِ موطن هذا الاهتمام وما طرأ عليه من تحولٍ على مر الزمن ونتائج ذلك فى كل من إنجلترا ومصر.

تم نشر كتب إنجليزية بالمئات تتحدث عن مصر فى القرن التاسع عشر ولم تكن إلا فصلاً من قصة طويلة وجذابة، ألا وهى قصة سحر مصر الذى تملك العقل الإنجليزى قرابة قرنٍ من الزمان، إلا أن هذه القصة لم تستوف حقها، وهى مثل كل قصة لها بداية ووسط ونهاية، وحتى يتسنى لنا معرفة المصادر التى جمعت خيوط هذه القصة علينا أن نرجع إلى ما قبل طور البداية.

فى السنوات العشرين السابقة على الحملة الفرنسية عام ١٧٩٨، اهتم بمصر مجموعة صغيرة من الرحالة غير المنتظمين الذين كانوا يمرون بها وفى الغالب الأعم لا يتوقفون عندها، ففى معظم الأحيان لم يقم أولئك الرحالة بزيارة مصر لنفسها وإنما مروا بها فى طريقهم إلى الهند كتجار أو جنود أو موظفين فى خدمة شركة الهند الشرقية أو فى طريقهم إلى مجاهل أفريقيا تدفعهم روح الاكتشاف التى نمت مع نهاية القرن الثامن عشر.

وهنا يبرز سؤالٌ جديرٌ بالاهتمام: «لماذا لم تكن مصر جذابة بدرجة كافية تستوجب زيارتها فى حد ذاتها؟». يمكننا الإجابة بأن الشرق عموماً لم يكن يلفت الأنظار إليه بعد، ليس بالنسبة لإنجلترا وحدها وإنما بالنسبة للعالم الغربى فى مجمله، تعرف العالم الغربى على الشرق عن طريق ألف ليلة وليلة التى ترجمت مع مطلع القرن الثامن عشر: وأدى هذا إلى ظهور مجموعة من الكتابات تتناول الشرق ونطلق عليها الحكاية الشرقية، ومع أن الحكاية الشرقية كمدرسة فى الكتابة انتشرت فى الغرب انتشاراً كبيراً لدرجة أن دكتور جونسون (عميد الكلاسيكية) كتب حكاية شرقية اسمها راسيلاس، لم يكن الشرق ذا جاذبية فى حد ذاته لدى الغرب، فمن الملاحظ أن كتَّاب الحكاية الشرقية لم يعيروا وصف الشرق فى نفسه اهتماماً كبيرا، فانصب اهتمامهم عليه كوسيلة ينطلقون منها للتعبير عن أفكارهم فى الأخلاق أو الفلسفة أو النقد الاجتماعى الساخر. ولم يجذبهم - والحق يقال -

إلا بعض الحكايات أو الأخلاقيات التى استنبطوها من هذه الحكايات ، وما كان الشرق دوماً إلا وسيلة لهذه الغاية.

نجد نفس الاتجاه عند الرحالة القلائل غير المنتظمين الذين زاروا مصر قبل الحملة الفرنسية فى طريقهم إلى الهند أو إلى مجاهل أفريقيا، فمصر بالنسبة لهم لم تكن إلا وسيلة لغاية، ونستنتج ذلك من ملاحظاتهم التى دونوها فى كتاباتهم عن مصر.

قلما نجد وصفاً لأرض مصر أو للمصريين فى هذه الملاحظات، لأن مصر لم تشغل بال الرحالة من هذه الزاوية بدرجة كبيرة، فمن المحتمل أن الرحالة وجد فى مصر مادة للتفلسف فجعلته يستدعى بعض الصور والأحاسيس المرتبطة بالكتاب المقدس أو روائع الأدب الغربى وجعلته يقدم بعض النصائح لزملائه الرحالة عن الطرق التى يمكن أن يسلكوها، لكن مصر لم تشغل انتباهه لنفسها.

ولنضرب لذلك مثلاً انحصار وقع آثار ومعابد مصر القديمة فى نفوس رحالة ذلك الوقت فى مجموعة من التأملات الأخلاقية تدور فى مجملها حول موضوع ملخصه أن كل أمجاد البشر إلى زوال؛ فيكتب أيلز أيرون عند مروره بمصر راجعا من الهند الى بريطانيا عندما يرى الآثار أنها «مدرسة يجب على المغرور أن يتعلم فيها التواضع، وعلى الكافر أن يذكر ربه.. فيها سيجد المرء هداية أكبر بكثير عما سيجده فى شطحات أو مواعظ رجال الدين»، ويتسق هذا الموقف مع مواقف العديد من رحالة ذلك القرن؛ إذ يتمثل سحر مصر بالنسبة لهم فى قدرتها على استحضار أفكار وصور أخلاقية عن الماضى؛ فنجد مسافرة تدعى إليزا فاى تكتب وهى فى طريقها إلى الهند عندما ترى الأهرامات :

> «... أستطيع أن أتخيل نفسى مواطنة فى عالم زال منذ عهد طويل، فمن يستطيع أن ينظر إلى هذه الصروح الضخمة المقامة منذ ما يزيد فى ظنى على ثلاثة آلاف سنة دون أن يرجع بخياله إلى الماضى ويعيش فى تلك الأيام التى بادت وغرقت فى النسيان مثل حكاية تحكى» .

إلى جانب هذه التأملات فى الطبيعة الزائلة للمجد البشرى ولدت مصر فى نفوس رحالة تلك الأيام مشاعر دينية وصلت أحياناً إلى درجة النشوة، فقناع القدم الذى كان الرحالة يرون مصر من خلاله ولَّد أحياناً سعادة خالصة، ولم يقتصر على ما ذكرنا من تأملات أخلاقية ناتجة عن مقارنة الحاضر بالماضى كتبت إليزا فاى من القاهرة:

> «جذبتنى المناظر الطبيعية حولى لطرافتها، واختمر لدى هذا الإحساس عندما نظرت إليها على أنها المكان الذى أقام فيه بنو اسرائيل، وتذكرت قصة يوسف وإخوته الجميلة، بل والفريدة عندما جبت الضفاف التى لجأ اليها يعقوب عليه السلام فى شيخوخته وشعرت كما لو كنت فى حلم، فبدا وجودى هنارائعاً جداً».

كان استمتاع الرحالة بالمكان يصل إلى ذروته عندما يضفى حوادث من الكتاب المقدس

على بعض المشاهد حوله، وهكذا كتب فرانسيس كولنز عام ١٨٠١ أنه «لم يتمتع بشعوره بوجود الله وفضله من قبل بمثل تمتعه بعبادته على رمال مصر».
كان سحر مصر يكمن في أمور أخرى عند بعض الرحالة في هذه الفترة وإن لم تكن مصر جذابة في حد ذاتها، فجاذبيتها بالنسبة لهم كانت تنبع من ارتباطها بأشياء أخرى؛ فمثلاً اهتم جورج بولدون الذي كان يشغل وظيفة القنصل العام البريطاني في الفترة ما بين ١٧٨٦ - ١٧٩٦، بمصر فقط طالما أنها تخدم مصالح إنجلترا، وكتب في كتابه ذكريات عن مصر :

«لن أتردد في الجزم أنه يمكننا أن نسيّر ألفي سفينة للتجارة سنوياً بين مصر وموانئ إنجلترا، وهل تنسى ما كانت عليه مصر؟ سيدي لقد أدركت ما هي عليه اليوم».

كان هذا الاتجاه نادراً في تلك الفترة، لكنه لم يكن أندر من موقف جورج وليام براون الذي نزل مصر عام ١٧٩٢ في طريقه لاستكشاف الحبشة، لكنه لم يستطع أن يتقدم أبعد من دارفور، فعاش في مصر ست سنوات يدرس خلالها اللغة العربية وعادات المصريين وأخلاقهم؛ وبناء على هذه الدراسة ألف كتاباً في الرحلة نشر في لندن عام ١٧٩٩، وذهبت بعض الصحافة المعاصرة آنذاك إلى أن هذا الكتاب «كان يجب مصادرته احتراماً لأذواق البشر» ويرجع هذا إلى أن أسلوب الحياة الشرقية فتن براون لدرجة أنه قارنه بأسلوب الحياة في الغرب وفضله عليه، وكتاب براون دراسة في طريقتين للحياة في العديد من المجالات، وترتكز هذه الدراسة على مبدأ راسخ وهو الإيمان بتلقائية النشاط الإنساني في حياة لا يعوقها حشد من الفنون والعلوم، وفوق هذا وذاك الإيمان بأخوّة البشر، فيرى براون أن الأغريق والأوربيين عموماً ارتكبوا خطأ فادحاً عندما وصموا الشعوب الشرقية بأنهم «برابرة»: «يثبت البحث الموضوعي أنهم (أي الشعوب الشرقية) يمتلكون مقومات كل ما هو محط إعجاب لدى أي شعب متحضر، وأنهم يتعاملون مع الجرائم مثلما تتعامل الشعوب الأخرى، وأن عواطفهم وإن تم التعبير عنها بطريقة مختلفة، لها نفس المنبع ونفس المصب (مثلما عند الشعوب الأخرى)».
من الواضح أن هذا التأويل لأسلوب الحياة الشرقية اعتمد على دراسة براون للمصريين، ومن هنا يمكننا اعتبار هذه الدراسة أولى علامات الاهتمام بمصر في حد ذاتها: وبالتالي يمكننا أن نقول أن سحر مصر للرحالة الإنجليز بدأ يتخذ شكلاً ملموساً.

الفصل الثانى

القاعة المصرية ورأس ممنون

لا أعرف من قال إن نابليون اكتشف مصر القديمة، ويمكننا أن نقول: إن القائد الفرنسى الكبير اكتشف مصر الحديثة كذلك، فحملته على مصر عام ١٧٩٨ جذبت أنظار الإنجليز بوجه خاص والأوروبيين بوجه عام إلى مصر.

يرى بعض المؤرخين أن الحملة الفرنسية على مصر أدت إلى ازدياد الاهتمام بالشرق، وتجلى ذلك فى قوة الاتجاه الاستشراقى الجديد الذى تزعمه سير وليام جونز، فكثر النقل المباشر عن اللغات الشرقية وازدادت كتب الرحلات، وبعد أن كان الشرق مجرد وسيلة أو ذريعة لغاية أصبح موضوعاً فى حد ذاته يتم تناوله ودراسته بطريقة عقلانية وعلمية بعيدة عن الخيالات والأوهام.

يتجلى هذا الوضع فى أوضح صوره فى مصر، فلم يعد مجرد الفضول أو حب الطرافة هو الذى يحرك اهتمام الإنجليز بمصر، إذ ازدادت مصر أهمية نتيجة لموقعها الاستراتيجى الذى بدا كما لو كان كشفاً جديداً؛ فنادى بعض الإنجليز بضرورة احتلال مصر، بينما أشبع بعض الكتاب الفضول العام بأكبر قدرٍ ممكنٍ من الكتابات، وكان هناك طلب كبير على أى شىء يتعلق بمصر مثل اليوميات الحربية والرسومات وكتب الرحلات وقصائد عن النيل وانتصار النيل (معركة أبى قير البحرية) والمقالات ورسوم الكاريكاتير والكتب الفرنسية المترجمة الى الانجليزية أو التى يعاد طبعها بالفرنسية، ومن هنا بدأ الانجليز ينظرون إلى مصر نظرة واقعية.

كانت الحملة الفرنسية السبب الرئيس فى اتخاذ الإنجليز هذا الموقف العملى والنفعى من مصر، مما ساعد على تكوين اتصال مباشر أكثر من أى وقت مضى بين إنجلترا ومصر، وأصبح المشهد فى مصر جذاباً ليس لمجرد التداعيات التوراتية أو التاريخية أو الكلاسيكية التى ارتبطت به وإنما لما يشتمل عليه فى الواقع.

يجدر بنا هنا أن نعاين هذا الاتجاه ونفسره من زاوية جديدة، ولن نعالج هنا الاهتمام السياسى بمصر الذى أيقظته الحملة الفرنسية، وسنتعامل مع شىء ملموس نراه رأى العين ألا وهو الآثار التى أدت أبحاث ومنشورات العلماء الذين اصطحبهم نابليون معه إلى تذوق جديد لها.

حصل الإنجليز على عدد كبير من قطع الآثار إما عن طريق الفرنسيين أو بطرقهم الخاصة، ولضخامة عدد هذه الآثار تم إنشاء أول متحف خاص بالآثار المصرية فى لندن وسمى «القاعة المصرية» وتم بناؤها فى بيكاديلى عام ١٨١٢ واستمرت حتى أوائل العشرينات، وكانت هذه القاعة مصرية خالصة بمفردات مأخوذة من الكتاب الذى نشره الكاتب الفرنسى دينون عن مصر عام ١٨٠١، وترجم هذا الكتاب إلى اللغة الإنجليزية بعد تسعة أشهر فقط من طبعته الأصلية، وتوافدت أعداد غفيرة من الإنجليز سواء من لندن أم من الأقاليم لزيارة القاعة المصرية، وكانت الجمعيات والأفراد يقتنصون أية فرصة فى الحصول على مومياء أو مسلة مصرية، وأصبح الأسلوب المصرى متبعاً فى أنواع عديدة من فنون الزخرفة فى إنجلترا.

فى تلك الفترة كان المتحف البريطانى يزود مجموعته الرائعة من الآثار المصرية التى شحنها الرحالة والتجار الإنجليز من مصر، وكلما وصلت هذه التحف إلى إنجلترا كلما ازداد افتتان الإنجليز بمصر؛ فعلى سبيل المثال، كان وصول وتشييد رأس رمسيس الثانى الذى كان يعرف حينذاك بممنون أو أوزيماندياس فى المتحف البريطانى حدثاً كبيراً أثار ضجة كبيرة، فنجد فى حوليات الفنون الجميلة وهى دورية نشر فيها كيتس بعض قصائده القصيرة وصفا دقيقاً مفصلاً لهذا الحدث، وتدهش هذه الدورية لكم الآثار المصرية الموجودة فى المتحف البريطانى، ولكى ترضى غيرها من الدوريات شغف القراء أمدتهم بمعلومات مستفيضة عن الآثار المصرية وأبدت فيها الرأى بالاعتماد على المصادر الموثوق بها قديمة كانت أم حديثة، بينما تكفلت دوريات أخرى مثل **كوارترلى ريفيو** بإطلاع القراء أولا بأول على أحدث الاكتشافات الأثرية فى مصر، ولم يقتصر هذا الاهتمام على الدوريات بل تعداه إلى الكتب، فطبعت كتب كثيرة عن مصر القديمة تتناول الأزياء والفنون وأساليب الحياة والمعمار وكذلك جوانب أخرى من الحياة المصرية القديمة، وكانت أعداد النسخ المطبوعة من هذه الكتب كبيرة جداً لدرجة أن أحد علماء الآثار المعاصرين يقول: إنه بحلول عام ١٨٢٠ تأسست المعرفة بمصر على دعائم جديدة ووطيدة.

امتد سحر مصر للإنجليز إلى مجالات أخرى غير الفن وعلم الآثار، ففى الشعر على سبيل المثال ألهمت رأس رمسيس الثانى شيلى بقصيدة قصيرة مشهورة تسمى أوزيماندياس نشرت عام ١٨١٨:

التقيت رحالة من أرض قديم
قال: هناك فى الصحراء ساقان من الحجر الهول قائمتان وحدهما
وقريبا منهما
يرقد على الرمال وجه مكسور غارق لنصفه تشهر
تقطيبته وشفته المتغضنة وملامحه الآمرة فى قسوة باردة
إن من نحت التمثال أدرك جيداً مشاعر الطغاة

فما زالت حية مطبوعة على الحجر الميت
اليد التى صاغتها ساخرة والقلب الذى أوحاها
وعلى قاعدة التمثال نقشت هذه الكلمات :
«أنا أوزيمانديياس، ملك الملوك،
انظر إلى صنيعى أيها الجبار واقنط!»
ولا شىء غيره بقى.
فحول أطلال هذا الصنم الضخم
تمتد الرمال مستوية وموحشة إلى ما لا نهاية

فى نفس العام (١٨١٨) تحدى لى هانت كلا من شيلى وكيتس فى كتابة **سوناتا** عن النيل وبالفعل كتبها وكسب التحدى، وتصوٍر قصيدته طبيعة المكان أفضل مما فعل صديقاه الأصغر سنا لأنه لم يصف النيل بل وصف آثار مصر القديمة الشامخة فى البرية :

يتدفق عبر مصر القديمة ورمالها الصامتة
كفكرة جبارة رصينة تجوس خلال حلم
بأزمنة قديمة وأشياء كما فى تلك الرؤيا
تقوم على جانبيه فى وقفتها أبداً
كهوفها وأعمدتها وأهراماتها، وجماعات الرعاة
يجوبون العالم فى بواكير التاريخ والمجد السامق
لسيزوستريس الجبار ولتلك النسمة التى هبت
من الجنوب، الملكة المرحة التى استحوذت على قلوب الجبابرة.
يلى ذلك صمت أكبر : صارم وقوى
كأنه ينبع من عالم فُرِّغ من سكانه
ويثقل الفرا غ علينا، وعندئذ نفيق من حلمنا
ونسمع النهر الخصب يجرى
بين القرى ونفكر فى رحلتنا الهادئة
سنكملها لصالح الإنسان.

وبالرغم من أن سوناتا هانت أفضل مما كتبه كيتس وشيلى، فإن قصائد هذين الأخيرين على دراية تامة بالآثار المصرية، وتتضح هذه الدراية فى قصيدة **هايبريون** لكيتس وقصيدة **ألاستور** لشيلى وغيرهما من قصائد الشاعرين، وفيما يلى مقتطف من **ألاستور** :

خطوته الهادئة
انصاعت لأفكار رفيعة وقفت
على الأطلال الجليلة للأيام الغابرة

منف وطيبة وكل ما هو غريب
ومحفور على مسلة مرمرية
أو مقبرة من اليشب أو أبو الهول مجدوع الأنف
تخفيه القارة السوداء فى تلالها الصحراوية
تمهّل هناك بين أطلال المعابد
والأعمدة الشاهقة وصور البرية
التى تفوق الإنسان حيث يحرس الجن من المرمر
أسرار بروج الفلك النحاس ويعلق الموتى
من البشر أفكارهم الخرساء على الجدران الصماء حولهم،
تسكع متأملاً فى النصب التذكارية
للعالم فى شباب، ظل طوال يوم طويل شديد الحرارة
حملق فى تلك الأشكال الصامتة ولم يكف
إذ ملأ القمر القاعات الغريبة
بظلاله العائمة، بل ثبت بصره فى عجب
إلى أن بزغ المعنى فى عقله الخالى
كإلهام غامر، ورأى
السر المثير لمولد الزمن.

اشتد جذب الآثار المصرية للرحالة لدرجة أن عدد الإنجليز الذين زاروا مصر فى العقدين الأول والثانى من القرن التاسع عشر فاق عددهم طوال النصف الأول من القرن الثامن عشر، وكانت هناك بالطبع دوافع وعوامل مرتبطة بتلك الفترة شجعت الإنجليز على الوفود إلى مصر نذكر منها اثنين: أولاً أغلقت حروب نابليون أوروبا فى وجه الرحالة الإنجليز طوال الأعوام العشرين الأولى من القرن التاسع عشر؛ وأدى هذا إلى اتجاه أولئك الرحالة إلى السياحة فى حوض البحر الأبيض المتوسط. لذلك أصبحت زيارة مصر امتداد للسياحة الكبرى (وهى رحلة كان يقوم بها شباب الإنجليز الأثرياء فى القرن الثامن عشر إلى أهم الدول والمدن الأوربية كجزء متمم لتعليمهم وتربيتهم (المترجم))، والدافع الثانى يتمثل فى الوضع السياسى لمصر نفسها، فعندما تولى محمد على مقاليد الحكم فى مصر ١٨٠٥ أصبح الرحالة يشعر بالأمان أكثر من ذى قبل، فلم يعد هناك خوف من أن تصادر السلطات أملاكه أو أن يهينه المصريون كما كان يحدث فى عصر المماليك.

يتضح من كتابات الرحالة أن الأمان فى مصر بلغ ذروته فى أوائل العشرينات: فيقول أحدهم عام ١٨١٧: «يمكن أن يذهب الزائر وماله تحت يده من أحد أطراف الدولة إلى الطرف الآخر دون أن يستولى عليه أحد بالقوة، فالقتل أضحى نادراً».

هناك إذا عدة أسباب وراء وفود أعداد غفيرة من الرحالة الإنجليز إلى مصر: منها

منعهم من نزول أوروبا لفترة طويلة وكذلك موضة التذوق الجديد للآثار المصرية، إلى جانب الراحة والأمان مما وفرته مصر للزائر. ونجد فى دورية « **إكلكتيك ريفيو** » عام ١٨٢٤ هذه العبارة: «لقد أسرعت إنجلترا الشابة لمشاهدة مصر القديمة»، فقبل ذلك بأعوام قليلة امتلأت مصر بالزائرين الإنجليز لدرجة أنه كان من المستحيل أن تسير فى أى شارع من شوارع لندن دون أن تقابل إنجليزيا عائداً لتوه من شواطئ البحر الأحمر أو جنادل النيل.

ماذا كان يفعل أولئك الرحالة فى مصر؟ وما أكثر ما جذبهم فيها؟ ومن كانوا؟ أو على الأقل من أشهرهم؟ وما الذى حققوه فى مصر؟ هذه أسئلة نأمل الاجابة عليها فى الفصول التالية.

الفصل الثالث

طيبة وأبو سمبل

كان سير فودريك هنيكر رحالة إنجليزياً ألَّف كتاباً رائعاً فى الرحلات سماه «**ملاحظات أثناء زيارة لمصر**» قال فيه عام ١٨١٩: «طيبة بأكملها ملكية خاصة للقناصل الإنجليز والفرنسيين»، وهذا القول الصادق يعبر عن قصة جيدة سنضطلع بحكيها فيما يلى:

«كان هنرى سولت قنصلاً عاماً لبريطانيا فى القاهرة عام ١٨٠٦، وهو رحالة له باع طويل فى تاريخ الرحلات إلى مصر؛ فلقد زار مصر مصطحباً معه الفيكونت فالنشيا ورسم عدة لوحات للقاهرة، ومن هذه اللوحات استمد بانكس بعض الصور فى طباعة بانوراما عن القاهرة عرضها فيما بعد فى ميدان ليسستر بلندن.

تم تعيين سولت القنصل العام فى مصر عام ١٨١٥ وعند وصوله إلى مصر فى مارس ١٨١٦ بدأ فى تكوين مجموعة لحساب إيرل ماونتنوريس، ومنذ قدومه إلى مصر حتى وفاته عام ١٨٢٧ أبدى سولت اهتماماً كبيراً بالآثار المصرية وكل ما يتعلق بها.

كان سولت قوى الإرادة ، واسع الطموح ودكتاتوراً يحب أن يخضع الناس لإرادته ويستغلهم فى تحقيق أهدافه وغاياته، ويذكر معاصروه دوماً هذه الصفات فيه مثلما نجد فى القصيدة التالية التى عثرت عليها فى **يوميات جيمز بيرتون** فى قسم المخطوطات بالمتحف البريطانى، كتبها سير وليام سيل وبعثها إلى بيرتون عام ١٨٢٠:

«إذا زرت مصر ولم يكن معك
خطابات لسولت فوجودك على النيل آثم،
فاحرص عندما تقدم أوراق اعتمادك أن تفصح
عما قاله صديقك الحميم كاسليراى (وزير خارجية)
الذى قابلته فى نادى الرحالة قبل مجيئك،
بأنه اطمأن عندما تذكر أن سولت الطيب
يحكم القاهرة بدلاً من الفرعون القديم».

كانت أنشطة سولت فى مصر كثيرة جداً ولا يمكننا أن نوفيها حقها هنا، لذلك سنكتفى ببعض منها: فمثلاً أثناء إقامته بمصر جمع عدداً كبيراً من الآثار تقدر بحوالى أربعة آلاف جنيه، وكانت لديه أقيم مجموعة من أوراق البردى فى عصره، لكنه لم يكن مجرد جامع

للآثار، فلقد كان وراء هذا ولع رومانسي بآثار مصر، ويفصح عن مشاعره في خطاب أرسله إلى صديقه وكاتب سيرته هولز في السابع عشر من أكتوبر ١٨١٨:

«لا يمكنك أن تتصور المتعة التي أجدها في زيارة ورسم الآثار الجليلة لمصر القديمة التي تفخر بها مصر، فعندما يرجع المرء بعقله للوراء إلى عصور بعيدة جداً تطول حياته، ولقد أصبحت على دراية تامة بالسكان القدماء وأشكالهم وعاداتهم، وأظن أنني عندما أعود إلى أوروبا لن أملك إلا أن أتخيلها بانتومايم حديثة (لمصر القديمة)».

فتنت مصر سولت لدرجة أنه لم يغادرها بالرغم من أنه صرح مراراً بأنه يود أن يغادرها ، ولم تستبقه في مصر الثروات ولا الطموحات وإنما افتتان ملك عليه جوانحه ورغبة رومانسية لم تشبع مطلقاً، ويصرح بذلك في قصيدة نشرها بالإسكندرية عام ١٨٢٤ بعنوان **«مصر، قصيدة وصف بقلم رحالة»**، وكتب هذه القصيدة لكي يصرف عن نفسه الأفكار السوداوية التي اجتاحته بعد موت زوجته أثناء المخاض ووضع الجنين وكذلك موت أعز أصدقائه (لي) الذي كان يشغل وظيفة القنصل البريطاني بالإسكندرية، وهذه القصيدة أنشودة حب تستدعي الذكريات الجميلة بمصر وتلفت نظر الآخرين إلى مفاتن مصر المحبوبة والتمتع بها، يعبر فيها سولت عن إحساسه بالبهجة والتميز لكونه وسط أطلال مصر القديمة ولمقدرته على رسم هذه الأطلال التي يجد فيها الملجأ والأمان :

في كل وادٍ صغيرٍ وكل خويّ يخلبان العين
مثلما في وأديك ياطيبة ! بينهما روحي
تنتشي بأحاسيس لا يعرفها العالم
وتقطن الماضي وتفتح مخزن الطبيعة العظيمة
فتزول عني أمراض الحياة الأسيفة.

ولا يفوتنا هنا أن نذكر أعظم إنجاز لسولت في مصر ألا وهو نقل رأس ممنون من طيبة إلى الإسكندرية عام ١٨١٦ ومنها نقلت إلى المتحف البريطاني في لندن، وهنا تظهر على مسرح الأحداث شخصية جيوفاني بابتستا بلزوني الذي كلفه سولت بهذه المهمة فأداها على أكمل وجه، وصل بلزوني إلى مصر عام ١٨١٥ لكي يقيم آلة تعمل بالماء بناء على طلب محمد علي، لكنه لم ينجح في هذه المهمة، فأعطاه الرحالة السويسري جون لويس بيركهارت خطاب توصية لسولت. وعندما وفق بلزوني في مسعاه شرع في التنقيب الذي استمر أربعة أعوام، وتجول في مصر مع زوجته الإنجليزية وصبي أيرلندي اصطحباه معهما من إنجلترا، وسجل بلزوني قصة حياته في مصر وكذلك مغامراته وأبحاثه وصراعاته في كتاب بعنوان **«حكاية الاكتشافات الحديثة في مصر والنوبة»**، نشر في لندن عام ١٨٢٠، وحظى هذا الكتاب باهتمام القراء لدرجة أنه طبع ثلاث مرات قبل عام ١٨٢٢، وأعيدت طباعته في بروكسل ببلجيكا عام ١٨٣٥، إن اكتشافات بلزوني وإنجازاته في فتح

الهرم الثانى بالجيزة ومعبد أبى سمبل جعلته تواقاً إلى الشهرة والاعتراف به كخبير فى الآثار، لكنه لم يكن خبيراً فى الآثار، فبالرغم من إعجابه بالآثار لم يحترمها أو يحترم بنائها، فعلى سبيل المثال، عندما كان وقوده ينفد، كان يجمع عظام وبقايا المومياوات ويشعل فيها النار. وكانت أبحاثه سعيا دؤوباً وراء السلطة والشهرة، وكان تنقيبه عن الآثار يفتقد الدافع والمنهج العلمى كما يتضح من كتابه، ومع ذلك كان لهذا الكتاب الفضل فى إظهار الصراع المحتدم بينه وبين السيد دروفتى، القنصل الفرنسى الذى انضم إليه فيها بعد كونت فوربان، وفيما يلى أحد جوانب الصراع الدائم بين بلزونى وخصومه:

«عندما نجحت فى فتح الهرم طلب منى كونت فوربان بطريقة تهكمية أن أرسل له خريطته، واعتقدت أن أفضل طريقة للثأر منه أن أرسل له الخريطة التى يتمناها، وبالفعل أرسلتها له بمجرد أن فتحت الهرم بعد رحيله بأيام قليلة، والغريب أن الكونت النبيل أعلن عندما وصل إلى فرنسا أنه نجح فى دخول الهرم الثانى بالجيزة وأحضر خريطته إلى فرنسا».

لم يقتصر سحر الآثار المصرية على بلزونى وسولت، إذ شهد أول عقدين من القرن التاسع عشر حشداً من الرحالة الإنجليز الذين وفدوا إلى مصر ليشاهدوا آثارها ويصفوها وينقبوا عنها، فكانت زيارة مصر امتداداً لرحلة السياحة الكبرى؛ ومن هنا زار مصر رجال على كل شاكلة ولون من ضباط فى جيش الهند ليقضوا إجازاتهم فيها، ورجال بحرية متقاعدون ومعلمون فى صحبة النبلاء ومغامرون وشباب أثرياء وصحفيون ودبلوماسيون وأعضاء برلمان، وطبع فى الفترة من ١٨٠٠ إلى ١٨٢٠ ما يربو على ٣٥ كتاباً من أدب الرحلات عن مصر، ومعظم هذه الكتب يركز فقط على الآثار، كان الرحالة فى القرن الثامن عشر لا يعتبرون أن بهذه الآثار حياة، فهى مجرد شاهدة على العجائب المعمارية للعالم القديم، لكن هذه النظرة تغيرت فى القرن التاسع عشر، فروح البحث أضفت على هذه الآثار الحياة، فأصبحت رمزاً لحضارة كاملة ولمجد ولّى، كانت النزعة الرومانسية التى انتعشت فى ذلك الوقت تدفع الرحالة للمجىء إلى مصر ليشاهدوا حضارة مصر القديمة ويستمتعوا بسحرها النابع من قدمها وغموضها ولم يكونوا مجرد خبراء آثار، بل كانوا حجاجاً يحجون إلى مصر مما أكسب رحلاتهم مذاقاً فريداً، وكلهم يتقاسمون هذا الشعور حتى أكثرهم عملية أمثال جيمس سيلك بكنجهام الذى كان صديقا لمحمد على ومستشاره فى خطط عديدة منها خطة إرسال عدد من الشباب المصريين ليتلقوا تعليمهم فى إنجلترا. ويقول بكنجهام عام ١٨١٤:

«عندما خمدت نيراننا وجلست أستريح للحظات على الأطلال، بدت لى فترة البحث كما لو كانت حلماً واضح الملامح، ووجدت صعوبة فى الاقتناع بأننى رأيت هذه الأشياء الجليلة التى انطبعت فى ذاكرتى ، وكان خيالى يرتع فى صور الأشكال الرائعة التى رأيتها، ولو لم يكن معى رفيق يتحقق مما أرى

لقلت أنه وهم، مع أنه حقيقة ناصعة».

تحدثنا باستفاضة عن سحر الآثار المصرية على الرحالة الإنجليز فى العقدين الأول والثانى من القرن التاسع عشر، لكن ما الذى حدث بعد عام ١٨٢٠؟ وهل استمرت الآثار فى جذب الرحالة؟ أم انتقل سحر مصر إلى موضوع آخر ؟ هذا ما سنتناوله فى الفصول التالية .

الفصل الرابع

الدارسون الفنانون

بدأ هذا الوضع يتغير مع بداية العقد الثالث من القرن التاسع عشر، فتغيرت نظرة الرحالة إلى الآثار، بالرغم من أنهم لم ينقطعوا عن المجيء إلى مصر لزيارتها، ومن مظاهر هذا التغير أنهم تخلوا عن الكتابة عن الآثار، ومن الصعب تحديد ما إذا كان السبب فى ذلك هو العدد الهائل من الكتب التى نشرت عن الآثار أو أن اهتمام الرحالة كان قد انصرف إلى جوانب أخرى من مصر؟ ، ومن المؤكد أن هذا الاهتمام بدراسة الآثار دراسة جادة اتخذ أبعاداً جديدة، وأصبح قاصراً على فئة من الرحالة ذوى مؤهلات تساعدهم على وصف هذه الآثار وتفسيرها والتوصل من هذا إلى صورة عن مصر تجعلهم يفهمون الحضارة التى خلفت هذه الآثار. كان هذا ما يفرضه منطق العصر آنذاك، فلقد تم معرفة آثار مصر القديمة بالفعل وتبقى أن يتم استخدام هذه المعرفة وسيلة للوصول إلى صورة كاملة عن العالم الذى ظهرت فيه هذه الآثار، وأضفت النزعة الرومانسية المنتعشة آنذاك على هذه الصورة جاذبية فريدة نتيجة لبعدها وغموضها، كما أن التقدم فى مجال البحث الأثرى ساهم فى رسم هذه الصورة خاصة بعد أن نجح طوماس يونج وشمبليون فى الكشف عن أبجدية اللغة الهيروغليفية من حجر رشيد؛ وبالتالى أصبح البحث عن هذه الصورة أو بالأحرى عن تفسير مناسب لما تمثله هذه الآثار موضوعاً أقبل عليه الباحثون الأكفاء بحماس كبير. ولم يكن هؤلاء الباحثون مجرد رحالة، بل كانوا خبراء أتوا إلى مصر بدافع سبر غور الآثار وتفسيرها وفهمها، وليس بدافع الفضول لرؤيتها أو التنقيب عنها مثل من سبقهم من الرحالة. وأقاموا فى مصر يدرسون الآثار دراسة جادة، وفى أثناء دراساتهم رسموا الأشكال الماثلة على الآثار إن لم يرسموا الآثار نفسها، فلقد كان معظمهم رسامين وفنانين، وبالرغم من دراستهم الطويلة، لم يستعجلوا بالنشر مثل الرحالة الذين كانوا «يقومون بجولة فيؤلفون كتاباً»، على حد تعبير كاتب معاصر لهم، فنجد أقلية قليلة منهم اهتموا بنشر ماتوصلوا إليه. ولا يعنى هذا أنهم لم يقدموا إسهامات كبيرة فى مجال البحث الأثرى، فلقد تركوا لنا بيانات دقيقة عن موضوعات كان من الممكن أن تمحى تماماً أو تتغير تغيراً جذرياً.

يعتبر روبيرت هاى أشهر هؤلاء الدارسين الفنانين، كان هاى منظم الحملة المصرية

التى مارست نشاطها فى الفترة ما بين ١٨٢٦ - ١٨٣٨، وضمت فنانين ودارسين مشهورين مثل ف. أرانديل وجوزيف بونومى وجميس هاليبيرتون و ف. كاثروود وتشارلز ليفر، ولم يكن مجيء هؤلاء الفنانين إلى مصر لمجرد الفضول، وإنما جاءوا ليستقروا فيها لبعض الوقت حتى يتسنى لهم مواصلة أبحاثهم، ونهجوا الأسلوب الشرقى فى حياتهم وتعلموا اللغة العربية وأتقنوها، وأطلقوا اللحى، ومعظمهم اتخذ له مسكنا فى طيبة وآخر فى القاهرة حيث كانوا يستقبلون أصدقاءهم من القاهرة أو من حوض البحر الأبيض المتوسط ويقيمون لهم حفلات موسيقى تركية، ومن اللافت للنظر أنهم كانوا يرفضون استقبال الإنجليز الذين يرتدون الزى الأوروبى، ربما لينالوا رضى السلطات التركية فى ذلك الوقت، وكذلك كانوا يفضلون السكنى بالأحياء الشعبية ويختلطون بعامة الناس، وفى طيبة اختار هاى مقبرة مصرية قديمة ليسكن فيها هو وزوجته ومعظم أعضاء حملته، وزودها بأرفف للكتب وكنب وأوانى للماء، وكان يدعو زواره للجلوس على مائدته «ومناقشة العديد من الموضوعات الحديثة وشرب الخمر المصنوع فى ماديرا وفرنسا»، ويقول أحد الرحالة المعاصرين :

> «لم يشهد موطن الموتى أبهج من هذه الجلسات، وكنا مغرمين بالفنون، وكرسنا أنفسنا للبحوث الأثرية لدرجة أننا ضحينا بأوروبا ومباهجها لبعض الوقت لنجرى أبحاثنا فى هذه الأرض البعيدة، ولم تفتر أحاديثنا أبداً، فمن أسعد فترات حياتى تلك الأمسيات التى قضيتها فى مقبرة طيبة».

لم تطبع الأبحاث التى قام بها هاى وأعضاء حملته لعقد من الزمن، باستثناء رسومات هاى للقاهرة، وهذه الأبحاث عبارة عن رسومات ويوميات تقع فى حوالى مائتى مجلد محفوظة فى قسم المخطوطات فى المتحف البريطانى بلندن، والعديد من رسوماتهم متناثرة فى مطبوعات علماء المصريات آنذاك، وهناك بعض اليوميات كان يمتلكها أفراد بعينهم مثل السيدة كوسونز من عائلة دتشامتون فى ولتون بإنجلترا، التى تكرمت على كاتب هذه السطور وأعارته يوميات جوزيف بونومى.

ومن الدارسين الفنانين ذوى النشاط المتميز سير جون جاردنر ويلكنسون الذى جاء إلى مصر عام ١٨٢١ وأقام بها اثنى عشر عاماً يدرس فيها اللغتين القبطية والعربية ويرسم الآثار وينقب عنها ويستكشفها، وقارن ما قاله الكتاب القدامى عن مصر بما توصل إليه هو وزملاؤه من نتائج ، كما أنه انهمك انهماكاً عارماً فى فهم مصر القديمة. ونشر أول كتاب له بعنوان« **طوبغرافيا طيبة ومسح عام لمصر**» عام ١٨٣٣، ويشتمل هذا الكتاب على المبادئ الأساسية التى بلورها فيما بعد فى أشهر كتبه « **أخلاق وعادات المصريين القدماء**»، والكتاب الأخير ينم عن موهبة فذة ودراية متأنية بمصر وعن مقدرة بحثية هائلة، وهو خلاصة حركة كاملة حاولت إعادة بناء حضارة مصر القديمة التى حيرت عقول أوروبا ببعدها وغموضها. وموضوع هذا الكتاب مر عليه شمبليون مرور الكرام دون أن يتعمق فيه

وتناوله روزلينى بقدر من العمق، لكن هذا لا ينتقص من قدر ويلكنسون، فهو مفكر عصامى ذو أسلوب سلس ويركز على الحياة اليومية للمصريين القدماء بدلاً من أن يتناول قضايا الاشتقاق اللغوى وقضايا خلافية أخرى مثلما كان يفعل غيره من الباحثين، كل هذا يجعل كتابه سهل القراءة وجذاباً بالمقارنة بكتب معاصريه، فقد توصل من دراسته للتماثيل والصور المصرية القديمة على جدران المعابد إلى صورة رائعة للحضارة المصرية القديمة بكل تقلباتها وتجلياتها، و«رسم صورة حضارة تبلورت لأول مرة فى «أشكال ونسب محددة» على حد تعبير مجلة «**إدنبرة ريڤيو**».

هذا ما كان ينشده العصر فى تلك الفترة، ولم يكن الأدب بمنأى عن هذه الموجة كما رأينا فى القصائد التى تناولت مصر القديمة والتى نشرت فى الدوريات المطبوعة آنذاك، ولم يكن الشعر وحده هو الذى واكب تلك الموجة، فنجد الرواية لها نصيب أيضا مثلما فى رواية «**رمسيس**» التى طبعت فى ثلاث مجلدات عام ١٨٢٤ ووصفت بأنها «أوسع طريق إلى المعرفة الحالية بمصر».

الفصل الخامس

البانوراما المصرية

لقد شهدت نهاية العقد الثانى من القرن التاسع عشر تحولاً فى اهتمامات الرحالة والكتاب الإنجليز بمصر، فبدأوا ينصرفون عن دراسة الآثار إلى جوانب أخرى من سحر مصر مثل المناظر الطبيعية المصرية أو مشاهدة القاهرة أو أخلاق وعادات المصريين، وبدأت هذه الموضوعات، بالإضافة الى موضوعات أخرى قليلة تستحوذ على الاهتمام الذى كانت الآثار تنفرد به من قبل.

لذلك نجد سير فردريك هنيكر يصرح عام ١٨١٩ بأنه يهتم بالطبيعة أكثر من اهتمامه بالأعمال الفنية، ويأتى بعد ذلك بثلاث سنوات مويل شيرر ليقول: إن هدفه يتلخص ببساطة فى «وصف ما رآه»، كما أنه يعترف فى مقدمة كتابه « **مشاهد وانطباعات من مصر وإيطاليا** » أن الكتاب لا يتوجه إلى الدارس ولا العالم ولا الفنان ولا القارئ واسع الاطلاع، وفى عام ١٨٣١ نجد من يقول فى مجلة «**إدنبرة ريفيو**» فى عدد يعرض مجموعة كتب نشرت عن مصر فى ذلك الوقت: «إن الكتب التى تظهر فى عنوان هذا المقال تدل على ما يخبئه لنا المستقبل فليس بينها كتاب يدعى أنه يبحث فى مجال واحد من مجالات المعرفة، فموضوع هذه الكتب ينحصر فى وصف البلد والأخلاق...».

وبعد ذلك بعام واحد، أى عام ١٨٣٢، يكتب من القاهرة أوجستاس سينجون، وهو رحالة كرّس جزءاً كبيراً من حياته لمصر:

> «إننى لا أسافر كعالم آثار، فلا الأهرامات ولا المعابد ولا شىء يمكن أن يصرف انتباهى عن وضع البشر الأحياء حولى، رجالاً كانوا أم نساء».

ما السبب فى هذا التحول فى الاهتمام؟ لا شك أن الآثار ظلت تجذب عدداً كبيراً من زائرى مصر كما هو الحال فى أيامنا هذه، لكنها لم تستحوذ على كل اهتمامهم كما سبق. إذ تم نشر كثير من الوصف والأبحاث التى تتناول الآثار المصرية لدرجة أنه أصبح من قبيل التكرار إضافة أبحاث وأوصاف أخرى، وأمست هناك حاجة ماسة إلى سبر غور الآثار وربما تأويلها أيضا، وهذه المهمة لا يقدر عليها إلا من هم مؤهلون لذلك ممن نعتبرهم علماء المصريات الأوائل وكانوا يناصرون علم المصريات فى ذلك الوقت، عندما كانت المعرفة

بالآثار المصرية تتطور تدريجياً، ومع ظهور أولئك الخبراء ضاق مجال الرحالة المتعارف عليه، لكن هذا الضيق أدى إلى توسيع الآفاق، وعندما أصبح الرحالة العادى غير قادر على المنافسة اضطر الى تحويل اهتمامه إلى مجالات أخرى غير الآثار.

مع أننا يمكننا أن نعتبر هذا هو السبب الأساسى وراء التوسع الجديد فى الاهتمامات أو ما أسميه التحول، فمن الإجحاف غض النظر عن عوامل وأسباب أخرى فى ذلك الوقت ساعدت على فتح مجالات جديدة للاهتمام بمصر لدى الرحالة والكتّاب الإنجليز.

أول هذه العوامل عامل تاريخى، فلقد أدت الثورة الفرنسية إلى الاهتمام بدراسة الإنسان ومجتمعه، كما أن صعود محمد على وفتوحاته بدأ يدخل الأحوال الاجتماعية لمصر فى دائرة الضوء، وبدأت مصر، فى الواقع، تكتسب موقعاً مهماً من الناحيتين الحربية والسياسية ليس فيما يخص الإمبراطورية العثمانية فحسب بل وأيضا فى إطار قضية من أصعب قضايا السياسة الأوروبية وأكثرها جاذبية، وهى قضية العلاقات بين روسيا وتركيا، مما أدى الى صعود سلطة وشهرة محمد على، كما ازداد عدد الرحالة الذين يزورون مصر لبحث النظام الجديد والكتابة عنه، وكان هذا شغلهم الشاغل وإن لم يكن شغلهم الوحيد. فأصبح من المعالم البارزة فى أى كتاب رحلات عن مصر أن نجد حواراً مع الباشا حيث إن الرحالة كانوا يرون أن إغفال أعماله أو تعليقه على أحوال رعاياه إجحافاً بحق القارئ.

كما أن خطط إنشاء طريق برى إلى الهند زادت من شهرة مصر بعد عام ١٨٢٠، ففى عام ١٨٢٩ بدأ طوماس واجهورن جهوده وسبق ذلك محاولات لنشر الخطة وجذب الاهتمام بها، ونتيجة لذلك أخذت جوانب كثيرة من مصر تستحوذ على اهتمام من كانوا يرغبون فى زيارتها أو من يقيمون فى بلادهم ويقرأون أو يكتبون عن مصر.

هناك أيضا عامل نفسى وراء اتساع نظرة الغريب الى مصر، فبفضل الأبحاث العديدة التى كانت تُجرى عنها آنذاك وبالتالى طول مدة الإقامة بها تعمقت المعرفة وأصبحت تجربة تقرب مصر من النفوس، فلم يعد الرحالة يعتبرها مجرد خلفية لتأملاته فى الأخلاق، كما أن الآثار أنضجت معرفته بمصر وأثارت فضوله لأنها أصبحت فى متناوله، كما أنها ولّدت الحب كذلك، مما ساعد على توسيع الاهتمامات، فلم يعد الرحالة يزور مصر من أجل المعلومات التى يمكن أن يحصل عليها فى رحلته، وإنما من أجل الرحلة فى حد ذاتها، وبما أنه لم يعد ملتزماً بالعودة إلى بلده بأخبار جديدة عن الآثار، فإنه تجول حيثما شاء فى أى مكان ، فالمعرفة ولدت الحرية.

من ناحية أخرى أدت الشهرة التى حظيت بها مصر على نطاق واسع إلى جذب أعداد أكبر من الزوار، فأتى إليها رجال ونساء من كل لون وطبقة، وبما أنهم لم يأتوا لهدف معين، انصرف فضولهم إلى كل شيء، وكثر عدد الزوار الإنجليز لدرجة أنّ شاهد عيان معاصر كتب عام ١٨٢٤: «إننا ننتظر وصول وجوه أدبية بكر من الجنادل والواحات كأمر واقع لا محالة، مثلما ننتظر رسائل البريد من هامبورج».

نلاحظ فى كتابات أولئك الرحالة اتجاها جديداً يغلب عليه الاهتمام بتقديم صورة لمصر تعكس ما رأوه، فمن الواضح أن الرحالة بدأ يكون فكرة معينة عن مصر وبالتالى أصبحت خبرته بها متجانسة إلى حد كبير، ويتجلى هذا الاتجاه فى وجهة النظر البانورامية التى تبناها معظم الرحالة؛ فابتعدوا عن التحيز والتعميم ومالوا إلى الوصف بدلاً من توصيل المعلومات واعتنوا عناية فائقة بالتفاصيل وتوفير الطابع المحلى، كما أنهم حاولوا وصف الحياة والحقيقة وصفاً صادقاً.

من أبرز الملامح فى هذه البانوراما المصرية، **كان أول ما يسترعى الانتباه هو المناظر الطبيعية** ، فلأول مرة فى كتب الرحلات عن مصر تؤخذ هذه المناظر فى الحسبان وتوصف بعناية فائقة وتفاصيل دقيقة، فضفاف النيل ونوّار القطن والقرى الصغيرة فى الصعيد الغارقة فى الماء أثناء الفيضان وصعود القمر فى سماء الصحراء أو الغروب كل هذا جذب اهتمام الرحالة فوصفوه فى كتاباتهم ووصفوا متعتهم به، فعلى سبيل المثال قول الرحالة جورج أوجستاس سينجون عام ١٨٣٢ إن غروب الشمس فى مصر «يستحق رحلة إلى مصر أكثر من الأهرامات».

أما الرحالة أن كاثرين إلوود التى زارت مصر بصحبة زوجها فى طريقهما إلى الهند عام ١٨٢٥ فتقول وهى تبحر فى النيل:

> «عندما بدأ ضوء النهار يتحول رويداً رويداً إلى شفق رقيق، انساب الجمال على سطح النهر الوسيع تاركاً العقل يسبح فى أحلام اليقظة الناعمة الممتعة، فلقد توحدت المناظر الشرقية بالخيال الأوربى وأخرجا مشهد سحرٍ خرافياً لا يكاد يحتمل».

أما البانوراما البشرية فبدأت فى جذب اهتمام الرحالة بعد عام ١٨٢٠. يقول جيمز وبستر الذى زار مصر عام ١٨٢٨:

> « لو سألنى أحد عن البلد الذى أمتعنى أكثر من أى بلد آخر، سأقول فى الحال مصر ، ففى مصر أجد مجتمعاً يختلف تماما عن مجتمعنا: فالحكومة والدين والناس كلها جديدة علينا ».

لقد كان هذا الاختلاف بين العالمين مصدر سحر لأعداد غفيرة من الرحالة الذين حاولوا أن يظهروا الطابع المحلى ويحددوا معالمه فى الحكايات القليلة التى حكوها وفى وصفهم المجتمع المصرى.

وكما سبق القول تكشف هذه الأوصاف عن نزعة إنسانية لطيفة بعيدة عن التحيز، تتعاطف مع المصريين وتفهمهم، وفيما يلى على سبيل المثال فقرة من خطاب كتبه د. مادن، جرّاح عاش فى مصر ١٨٢٥ - ١٨٢٧. والخطاب موجه إلى صديقة إنجليزية ومؤرخ بتاريخ ٢٨/٠/١/١٨٢٦، القاهرة :

«لعلك تعتبرينني وقحاً إذ أخدش كبرياء سيدة في بلد مسيحي بوصف واحدة من هذه «المخلوقات» المصرية كما أكون في نظرك «سخيفاً جداً» وأنا أمدح جمال مثل هؤلاء النساء «البشعات»، فبالرغم من بدانتهن، أتجاسر بتأكيد أن الذقن سماوية الزرقة، والأصابع المخضبة والحواجب السوداء تضفي على العديد منهن جمالاً لا يقاوم..».

الفصل السادس

أخلاق وعادات المصريين المحدثين

بدأ الرحالة والكتَّاب الإنجليز يهتمون بالعنصر البشرى على الساحة المصرية بعد عام ١٨٢٠، وبلغ هذا الاهتمام ذروته على يد روبرت كيرزون وإدوارد وليام لين، وبالرغم من تصادف وجودهما فى مصر فى نفس الوقت، وبالرغم من اشتراكهما فى ملاحظة الرجال والنساء حولهما، فان وصفهما لما رأيا متباين جداً، فلقد كان لكلٍ منهما طابعه الخاص.

كان روبرت كيرزون من طبقة النبلاء وزار مصر والقدس عام ١٨٣٣ بحثاً عن مخطوطات قديمة فى مكتبات الأديرة، وعندما عاد إلى إنجلترا وإلى بيته الريفى القديم حاملاً معه المخطوطات التى جمعها بدأ يسجل المشاهد والانطباعات التى ذكرته بها تلك المخطوطات، فوضع كتاباً ساحراً نشره فى لندن عام ١٨٤٩ بعنوان « **زيارات إلى أديرة الليفانت (حوض شرق المتوسط)** ». ولقى الكتاب استحساناً كبيراً فور صدوره وطبع ثلاث طبعات عام ١٨٤٩، ثم ظهرت الطبعة الرابعة عام ١٨٦١، والخامسة عام ١٨٦٥، والسادسة عام ١٨٨١ والسابعة عام ١٨٩٧، وتلا ذلك طبعات متعددة، لم يكتب كيرزون كرحالة يدون ملحوظاته بدقة ومهارة فى حينها، ولا كرحالة يحاول أن يستنبط درساً أخلاقياً من ملاحظاته للناس وأخلاقهم، ولا كرحالة يريد أن يثرى معرفتنا بالبلاد التى يزورها؛ بل يكتب بحس فنانٍ يعتبر خبرته بالبلد ذات قيمة، بل وأصبحت هذه الخبرة موضوعاً فى حد ذاتها يدفعه للإبداع، وهكذا كلما تنامت القصة التى يحكيها عن مصر كلما كشفت لنا عن نفسها تدريجياً من خلال الصور التى رسمها كيرزون للأماكن والناس، وكذلك من خلال حكايات وأساطير الحياة المحلية التى يحكيها بمهارة فائقة، وأخيراً من خلال الخبرات الشخصية المتنوعة التى يرويها، ويركز كيرزون طوال الكتاب على أوجه الاختلاف بين المجتمع المصرى ومجتمعه، وبالتالى نجده يلاحظ ما يدور فى المجتمع بحماس كبير محاولا دوماً أن يمسك بدرجات ألوانه وظلاله ويصورها، وها هو يصف نداءات المؤذنين فى القاهرة :

«يبدأ يوم المسلمين مع غروب الشمس عندما يحين وقت الصلاة الأولى، ثم تحل الصلاة الثانية بعد غروب الشمس بحوالى ساعتين، أما الصلاة الثالثة فموعدها عند الفجر عندما يتردد نداء المؤذنين الجميل من الألف مئذنة

بالقاهرة تردداً مؤثراً فى الجو الهادئ الجميل، ولأصوات المؤذنين بالمدينة وقع جميل ومقدس فى نفسى، ففى البداية تستمع إلى صوت أو صوتين يأتى إليك واهناً من بعيد. ثم يرتفع صوت بالقرب منك، وبعد ذلك يعلو النداء من مآذن الجوامع الأخرى، وأخيراً يقع النداء المتناغم على الأذن وقعاً جميلاً من أحد أطراف المدينة إلى الطرف الآخر داعياً المؤمن للصلاة، فى البداية يبدو كما لو كانت هناك جوقة أصوات فى الهواء مثل الأرواح تدعو بعضها البعض لعبادة خالق كل شىء، وعندما يخفت الصوت، يخيم الصمت لبرهة قصيرة ثم تبدأ همهمة المدينة المستيقظة وجلبتها. وأعتقد أن هذا النداء من الإنسان على أخيه الإنسان للصلاة أكثر ملاءمة للشعور الدينى عن صلصلة النواقيس الأوربية وجلجلتها».

عندما نصل إلى كتاب إدوارد وليام لين (١٨٣٦) نجد أن وصفه للمجتمع المصرى يختلف تماماً عن وصف كيرزون، فهو يرسم لنا صورة هذا المجتمع بالاعتماد على التجربة المباشرة وليس على الخيال، وهذه الصور غنية بالتفاصيل لكنها تكاد تخلو من الحيوية وتفتقد الجو الذى يطبعها فى ذهن المتلقى، ومع ذلك، تمثل عالماً موضوعياً هو نتاج يقظة وانتباه عقل فضولى شديد الصدق، يمثل «أكمل صورة كتبت عن حياة شعب»، على حد قول أحد المعلقين، ونتوقف هنا لشرح بعض تفاصيل زيارة لين لمصر:

يقول لين فى مقدمة كتابه «**أخلاق المصريين المحدثين وعاداتهم**» إن زيارته الأولى لمصر عام ١٨٢٥ كانت لدراسة لغة سكان القاهرة وعاداتهم، التى وصفها بأنها «أكبر مدينة عربية»، ولا يخفى علينا أن لين لم يكن الوحيد الذى جذبته مصر كبلد عربى ، فالمتصفح لكتابات الرحالة والكُتَّاب الإنجليز فى القرن التاسع عشر يلحظ أن السبب الرئيس لافتتانهم بمصر ينبع من أنهم يجدون فيها صورة لألف ليلة وليلة ولا ننسى هنا الاهتمام الكبير الذى حظيت به الدراسات العربية نتيجة لحركة الاستشراق الجديدة والقوية التى بدأها سير وليام جونز فى أخريات القرن الثامن عشر، فلقد نقلت ترجمات كثيرة عن اللغة العربية لدرجة أن شعراء مثل شيلى حاولوا تعلم اللغة العربية ونجحوا فى ذلك إلى حد ما . وبحلول عام ١٨٣١ (أى قبل ظهور كتاب لين بخمس سنوات) كان صندوق الترجمة الشرقية قد طبع ١٤ ترجمة أكثرها عن أعمال عربية، ولين ذاته يقول فى تمهيد كتابه إنه عندما كان يكتب وصفه للمصريين المحدثين الذين يعتبرون «أكثر شعب عربى حديث تحضراً»، على حد قوله، كان أحد أصدقائه وهو السيد فالجانس فرزينل يكتب تاريخ العرب القدامى، لكنه فى نفس التمهيد بل فى نفس السطر تقريبا يقول لنا إن صديقاً آخر وهو سير جاردنر ويلكنسون مشغول بكتابة وصف لأخلاق المصريين القدماء وعاداتهم، وبالرغم من أن لين درس اللغة العربية فى إنجلترا قبل أن يأتى إلى مصر، فإن هدفه من زيارة مصر لم يختلف عن هدف معظم الرحالة، إذ ساهمت أشياء كثيرة فى جذب الاهتمام الى

مصر ولا سيما الموقع فى شرق حوض البحر الأبيض المتوسط، وليس أدل على ذلك من العمل الذى أنجزه بعد عودته إلى إنجلترا عام ١٨٢٨، وهو كتاب ضخم من خمس مجلدات مخطوطة تحتوى على ١٠١ رسماً ممتازاً مع استخدام نوع من آلات التصوير البدائية (كاميرا لوسيدا) وعنوانه «**وصف مصر**»، ومن يطّلع على هذا الكتاب فى قسم المخطوطات بالمتحف البريطانى يلاحظ على الفور أنه لا يختلف كثيراً عن أوصاف ذلك الوقت لمصر اللهم إلا فى شموله، فهذا الكتاب يتناول موضوعات الآثار وحكومة محمد على والمناظر الجديرة بالمشاهدة فى القاهرة وعادات الناس، مثل أى كتاب رحلات آخر بعد عام ١٨٢٠. رفض الناشرون الكتاب تماماً، ربما لكبر حجمه، وربما لأن المؤلف كان ينقصه «الحس التصويرى» الذى كان يتطلبه العصر آنذاك، ولحسن الحظ كان لين يمتلك ما كان معظم الرّحالة يفتقدونه، فلقد كانت لديه عين يقظة وطبيعة دؤوبة جداً وكذلك الأدوات الضرورية للملاحظة مثل معرفته الوثيقة باللغة العربية، وساهمت أشياء كثيرة فى جاذبية هذه الصورة منها أنها كانت مختلفة عن المجتمع فى بريطانيا، إن لم تكن متناقضة تماما، كما وجدوا فيها انعكاساً جميلاً لألف ليلة وليلة التى كانت قد انتشرت انتشاراً كبيراً لدى العامة والخاصة فى ذلك الوقت، وكان الكتاب يصور الحكم الجديد الذى أسسه محمد على، ومن هنا يمكننا أن نفهم السبب فى أن لين اقتطع الجزء الذى يتناول المصريين المحدثين وقدمه إلى جمعية نشر المعرفة المفيدة ونشره عام ١٨٣٦ بعنوان «**وصف أخلاق المصريين المحدثين وعاداتهم**» ولاقى نجاحاً كبيراً وفورياً، فلقد أشبع هذا الكتاب حاجة عامة مما لم يقدر عليه أى كتاب آخر من هذا النوع، وفى الحقيقة توج هذا الكتاب حركة كاملة حاولت وصف الحياة المصرية وصفاً خالصاً، ولسنوات طويلة بعد نشره نصح من يكتبون عن مصر القراء بالرجوع إلى هذا الكتاب، واقتبسوا منه كثيراً سواء وثقوا مصدرهم أم لم يوثقوه، ولأن هذا الكتاب قدم صورة مكتملة عن المجتمع المصرى اعترف العديد من الكتاب بأنه لم يترك شيئاً يمكن أن يقال بعده، ونتيجة لذلك أحدث هذا الكتاب، بالإضافة الى عوامل أخرى، تغييراً فى اتجاه الرحالة الإنجليز إزاء مصر .

الفصل السابع

الطريق البرى والمجتمع المصرى

يمثل نشر كتاب لين وصف **«أخلاق المصريين المحدثين وعاداتهم»** عام ١٨٣٦ مرحلة جديدة فى قصة سحر مصر الذى جذب الرحالة والكتاب الإنجليز، فحتى ذلك الوقت جذبت مصر عدداً من الأثريين مثل ويلكنسون أو الباحثين مثل لين أو المغامرين الأثرياء مثل هينكر، وكان يزورها كذلك مسافرون من موظفى الهند، وأحياناً كانت زيارة مصر امتداداً للسياحة الكبرى عند الأثرياء، ومع ذلك لم تكن مصر مشهورة بالمعنى الدقيق للكلمة قبل عام ١٨٣٥، فمنذ ذلك الوقت تنوع زائرو مصر وازداد عددهم كثيراً عن ذى قبل ، ولم يقتصر الأمر على الرحالة الإنجليز وحدهم، فلقد توصل الأستاذ الفرنسى جان مارى كاريه إلى نفس النتيجة فى دراسته الرائعة « **الرحالة والكتاب الفرنسيون فى مصر**»، فيقول فى هذا الكتاب: إن عدد الرحالة والكتاب الفرنسيين بدأ فى الزيادة بسرعة بعد عام ١٨٣٥ أكثر عن أى فترة سابقة فى تاريخ مصر، ويلاحظ أيضا أن مصر جذبت مجموعة كبيرة من الكتاب الفرنسيين المشاهير أمثال فلوبير وغيره فى أواخر الثلاثينات وما بعدها، وهو ما حدث للكتاب الإنجليز، ففى الفترة بين ١٨٣٥ - ١٨٦٠ زار مصر عدة كتاب مثل وليام ميكبيس ثاكارى والآنسة هاريت مارتينو وألسكندر كينج ليك وإليوت واربرتون ولورد لندسى ورتشارد مونكتون ميلنز، على سبيل المثال لا الحصر، وأصبحت مصر، فى الحقيقة، منتجعاً شهيراً يقضى فيه السائحون على اختلافهم إجازاتهم بداية من الصحفيين العاملين عند حكومة محمد على إلى التجار فى مهام عمل والمرضى الباحثين عن العلاج فى دفء الصعيد وجفافه، والمسافرين فى خدمة شركة الهند الشرقية والمترفين فى إجازة ودارسى الكتاب المقدس والكتّاب والرسامين الباحثين عن مصادر جديدة للإلهام، وفى ذلك الوقت كانت بعض جوانب أرض مصر والرحلة إليها معروفة مثلما يعرف الرجل الإنجليزى العادى الآن أجزاء من سويسرا أو فرنسا، فعلى سبيل المثال يذكر الرحالة دوماً أسواق القاهرة وحمّارة الإسكندرية والإبحار فى ترعة المحمودية وفندق الشرق بالأزبكية، وأصبحوا يتحدثون عن جمال جزيرة فيلة والمنظر من القلعة والهواء الصحى فى النوبة، ومع ذلك كان الجميع يعاودون الكتابة عن كل هذه الأشياء لدرجة أن ثاكارى الساخر لم يستطع إلا أن يسير فى نفس الاتجاه ويصف شوارع القاهرة وصفاً جاداً.

زادت شهرة مصر زيادة كبيرة مع استخدام البخار فى الملاحة والتسهيلات الكثيرة التى واكبت هذا الحدث المهم، ويرجع الفضل فى هذا إلى طوماس واجهورت الذى قام، قبل أن يغادر مصر عام ١٨٤١، بوضع مراكب بخارية على النيل وترعة الإسكندرية، وأنشأ كذلك خدمة المركبات الإنجليزية وعربات نقل البضائع وخيول لنقل الرحالة عبر الصحراء، فأصبح الطريق بين القاهرة والسويس طريقاً سريعاً لا يخلو أبداً من آثار عجلات المركبات، كما أنه زود هذا الطريق بسبع محطات منها محطتان تقدمان مشروبات روحية أوروبية، وكانت محفات الحمير، وهى نوع من المحفات الخفيفة، متاحة للنساء والأطفال والمرضى، وكان منظر عربات بريد السويس، التى تجرها أربعة خيول وتحمل سيدات يرتدين ملابس أوروبية ومصطحبات كلاب صغيرة، مثيراً للناظرين من أهل البلاد، ويروى أحد الرحالة أنه فى فندق الشرق بالقاهرة أو فى فندق أوروبا بالإسكندرية «يرتدى الضيوف ملابس السهرة فى العشاء وتغادر السيدات الحجرة عندما يدخل النادل زجاجات البورت»، وبعد العشاء كانت تقدم أوبريتا إيطالياً أو كوميديا فرنسية على نفس مسرح الهواة أحيانا، ومن الجدير بالذكر هنا أن ثاركارى فى كتابه «**مذكرات رحلة من كورن هيل إلى القاهرة الكبرى**» يعنون الفصل الخاص بالإسكندرية بقائمة الطعام التى قدمت للمسافرين وكلها أطباق إنجليزية، ويروى أحد الرحالة أن الرحلة كانت «مجرد حفلة للمتعة»، وبالرغم من أن هذا قلل من رومانسية التجربة كما شكا البعض إلا أنه جعلها أكثر راحة.

يقول لورد لندسى عام ١٨٣٦: «مع وجود الفنادق الإنجليزية بالقاهرة والإسكندرية والقصور العائمة الجاهزة للملاحة فى النيل تحت الطلب، لا يوجد ما يمنع السيدات الإنجليزيات وحاشيتهن من المعجبين من أن يقضوا الشتاء فى طيبة مثلما يقضونه فى باريس وروما».

سهل الأمر كثيراً بعد عام ١٨٣٦، فوجد الرحالة كل أنوا ع الراحة والتسلية بما فيها حفلات الرقص والحفلات الموسيقية وحتى نوادى إعارة الكتب وغير ذلك الكثير، فعلى سبيل المثال أسس الدكتور والن عام ١٨٣٦ بالقاهرة جمعية باسم الجمعية المصرية، وكان من أعضائها الشرفيين بعض الدارسين المتخصصين فى الشؤون المصرية مثل لين، وويلكنسون ولورد برودو وهاملتون وروسيلينى ولابورد والدكتور جليدون، ومن بين اهتمامات هذه الجمعية تحديد مواعيد التقاء الرحالة مع بعضهم البعض، كما أنها جمعت المعلومات الخاصة بمصر وسجلتها، بالإضافة الى أنها سهلت البحث بأن أنشأت مكتبة لأعضائها وضيوفها تحتوى على الكتب الرئيسة التى كتبت عن مصر، وكثيراً ما يشير إليها رحالة تلك الفترة الذين كانوا يتقابلون فى مبنى الجمعية أو يقرأون فى المكتبة، كما أسس الدكتور أبوت والرسام الفرنسى م. بريس جمعية أخرى فى القاهرة عام ١٨٤٢ لنشر الأعمال التى تتناول مصر ولتسهيل البحث من خلال إنشاء مكتبة، وربطا هذه الجمعية بالجمعيات الجادة

فى أوروبا وكذلك بالباحثين على مستوى العالم؛ فاشترك فيها رجال الثقافة البارزون لبعض الوقت، وكان أولهم سير جاردنر ويلكنسون .

بالإضافة إلى التسهيلات المحلية التى وفرتها مصر للرحالة أكثر من ذى قبل، هناك عوامل أخرى ساعدت على جذبهم إلى مصر، من بينها الكتب المشهورة التى نشرت عن مصر مثل كتاب «**المشهد الشرقى والمصرى**» لهين وكتاب «**مصر**» لرسل وكتاب «**أخلاق المصريين القدماء وعاداتهم**» لويلكنسون «**أخلاق المصريين المحدثين وعاداتهم**» للين، ولقد أثارت هذه الكتب وغيرها الفضول العام ، فيقول طوماس واجهورت فى كتابه «**المرشد للطريق البرى إلى الهند من خلال ثلاث طرق إلى مصر**»: «إن الرحالة مدعو للتأكد بنفسه من الأشياء التى تعده بها هذه الكتب، وكذلك كان مدعواً ، على حد قول واجهورن «ليشهد فجر عصر التنوير فى ظل حكومة محمد على»» فى الحقيقة زاد الطريق البرى وأنشطة محمد على الكثيرة من شهرة مصر لدرجة أننا نقرأ أن «من المؤكد أن أى كتاب يرد اسم مصر فى عنوانه سيجد له قراء، وإن كان قليل المزايا». وكان هذا المسلك ناجحا بدرجة كبيرة حتى أن كتبا لا تحتوى على جديد وبالتالى عديمة التسلية كانت تنشر للتربح حتى ترفع رصيد كنيسة ما أو أن تحيى ذكرى مؤلف راحل.

من الناحية الأخرى ازداد الاهتمام بكل ما يقع شرق حوض البحر المتوسط عما ذى قبل.

أرسل الشاعر بايرون إلى صديقه الشاعر توماس مور خطاباً عام ١٨١٢ يوصيه : «انظر إلى الشرق فهو السياسة الشعرية الوحيدة»، وكان الشرق سياسة فعلاً، لم يتعلق به بايرون ومورو وحدهما بل جيل كامل من شعراء القرن التاسع عشر، وكان هذا الحب للشرق يتمكن من الشعراء أنفسهم مثل تمكنه من قرائهم، وكتبت دورية «**إدنبرة ريڤيو**» عن لورد بايرون عام ١٨١٨ تقول :

> «استقى الموضوعات التى يقدمها فى قصيدته الفارس هارولد من اهتمامات الناس الحالية، فالصفة الشعبية تسيطر على مادة القصيدة وأساسها، ولم تنبع رحلاته من دافع ذاتى لشخص يهيم بمفرده فى جولاته منعزلاً عن المجتمع الذى يعيش فيه، فلقد كانت رحلاته خاضعة للحركة العامة للمجتمع، فالإحساس بإيطاليا أو اليونان أو الجو العثمانى لم يطبع على العقل الإنجليزى من خلال قوة تلك العبقرية وإنما كان كامنا لدى الإنجليز من قبل بقوة ونشاط ».

بعيداً عن الأحداث السياسية التى قربت الشرق إلى العقل الإنجليزى، مما ساعد على الاهتمام بالشرق أن تدفقت طبعات الكتب المرتبطة بالشرق مثل الحكايات الشعرية والأوصاف الشعبية والترجمات المباشرة للنصوص الشرقية، كما أن كتابات بايرون ومور وساوذى وسير وليام جونز وإدوارد وليام لين وأعضاء صندوق الترجمة الشرقية تراكمت

فى ذلك الوقت وتخللت عقل القارئ عموماً وليس أدل على ذلك من الرحالة أنفسهم، فلم تعد معرفة الرحالة مقصورة على «**ألف ليلة وليلة**»، وإنما امتدت حتى وصلت إلى الشعراء والمؤرخين والجغرافيين العرب القدامى، ونستنتج من بحثهم الدائم عن الطابع الشرقى خلال تلك الفترة أن تصوراتهم المسبقة عن الشرق كانت أحد الدوافع وراء انجذابهم لزيارة مصر، حتى ثاكارى لم يستطع أن يخلص نفسه من صور «**ألف ليلة وليلة**» عندما حاول معارضة هذا الاتجاه معارضة ساخرة، فلقد سيطرت هذه الصور على عقله عندما كان فى مصر ولم يستطع إلا أن يعيد إنتاج كل ما له طابع شرقى وقعت عليه عيناه.

الفصل الثامن

البحث عن الطابع الشرقى

يقول جميس أوجستاس سنجون فى كتابه «**إيزيس**» (١٨٥٣): «أجمل ما فى المناظر الطبيعية كان الجانب غير المنظور الذى جاء معى من الشمال إلى هنا»، ويمكن أن نجد أصداء لهذا الكلام عند كل من كتب عن مصر فى أواخر ثلاثينات القرن التاسع عشر وما بعدها، فمع تراكم المعرفة بمصر خاصة بعد ظهور كتاب لين «**أخلاق المصريين المحدثين وعاداتهم**»، أصبحت محاولة إضافة معلومات جديدة من خلال وصف الحقيقة الخارجية «تزيداً، مثل عصر ليمونة معصورة بالفعل»، على حد قول رحالة معاصر، لذلك لم يهدف معظم الرحالة بعد عام ١٨٣٥ إلى دراسة مصر أو وصفها، فلقد تكفل بذلك الرحالة السابقون حيث قاموا بوصف حقيقة خارجية أصبحت فى متناول الجميع ويمكن أن يتخيلها المرء بسهولة لدرجة أن ثاكارى تعجب عند رؤيته الأهرامات لأول مرة من أنه رآها من قبل..».

وبالتالى انصرف رحالة تلك الفترة عن تصوير وجه الحقيقة وبدأوا يسجلون انطباعاتهم الخاصة عن مصر، مما يعتبر نقطة تحول أدت إلى تغير فى الاهتمام إن لم يكن فى الحس والإدراك، ولا يرجع السبب فى هذا إلى أنه من الصعب على أى كاتب، مهما كثرت معلوماته، أن يضيف جديداً إلى مخزون المعرفة المتاحة للقارئ العادى، حيث إن مشاهد مصر اشتهرت لدى القارئ العادى نتيجة للأوصاف الكثيرة التى قدمها له الرحالة السابقون، بل يرجع السبب إلى أن الحياة تدفقت فى هذه المشاهد من خلال تداعيات المعانى التى أسبغتها عليها الجهود الاستشراقية الطويلة سواء من الناحية الشعرية أم من الناحية البحثية والدراسية، فأصبح لدى الرحالة ردود فعل عن مصر مثل الحنين والشوق الغامض إلى الجليل والقديم والصور الجميلة الغريبة «**لألف ليلة وليلة**» وكذلك لتمثال ممنون ومآذن جوامع القاهرة، وصارت هناك نقطة التقاء أو تواصل بين المشهد والرحالة وهذه النقطة وسعت من استجابة الرحالة وساعدته على أن يبحث ويدهش وهو يلحظ انطباعاته ويجمعها فى رؤية خاصة به، ولم يستطع الرحالة إلا أن يسلم نفسه لتداعى المعانى وتصوراته المسبقة عن مصر فانعكس هذا التداعى ولوّنه وشكل رؤية الرحالة، وكان الرحالة يعى بعض هذه الانطباعات المخزونة ولا يعى بعضها، لكنها أثرت عليه وغذت عشقه للطابع

الشرقى، كما أنها تغذت بدورها من خلال البحث عن هذا الطابع.

كانت حالة من الفعل ورد الفعل أصبحت فيها العلاقة بين المشهد والرحالة أكثر شخصية وحميمية عن ذى قبل، وولدت هذه العلاقة الشخصية الجديدة إحساساً بالدهشة لدى الرحالة، ولم يكن هذا الإحساس ناتجاً عن شكل الحقيقة أو مظهرها، وإنما كان نابعاً من الفرق بين عالمين: العالم الذى جاء منه الرحالة والعالم الذى جاء إليه، وامتدت الدهشة إلى أثر العالم الأخير على عقل الرحالة وحساسيته، إذ ساعده هذا العالم على اكتشاف إمكاناته الشخصية وربما التعبير عنها، لذلك لم يعد هناك رحالة على غرار أ.و. لين أو ج. ويلكنسون يجمع العناصر الصغيرة لنظام حياة معين، سواء أكانت هذه الحياة قديمة أم حديثة، ويضعها بجانب بعضها البعض ليرسم صورة لمصر، اختفى هذا الأسلوب وأصبح هناك رحالة على شاكلة كينجليك يقوم بالرحلة لكى يقوى عزيمته، يجوب المشهد وحيداً صامتاً فى نشاط يدل على نشاط أمته بأكملها، لكنه يضطرب أحياناً وهو يتلمس طريقه للوصول الى قبسٍ من الحقيقة الداخلية ويميط عنه اللثام، وكذلك أصبح لدينا رحالة على شاكلة واربرتون يجد الإلهام فى هدأة مصر واتساع الوقت بها ومع ذلك يشتاق للعمل وضجة الحياة المزدحمة فى الغرب، ويكتشف أثناء ذلك قدرته الكامنة على الوصف ويستخدم الأسلوب الأدبى عند نشر يومياته، ولدينا كذلك رحالة مثل ميلنز يرغب فى مزج أفكاره بالأفكار التى أنتجها العقل الشرقى لأنه يجد فى هذا المزيج الإلهام ومادة واسعة للإبداع، وهناك أيضا رحالة على شاكلة لورد ليندسى ينغمس فى إحساسه بزوال الحياة وهو يتأمل المشهد، ولدينا أخيراً رحالة على غرار بيل سنجون يبتهج بالحياة وسط شعوب الليفانت فى الإسكندرية أو وسط الفلاحين فى صعيد مصر، ولا نجد عندهم صورة دقيقة تمثل مصر وإنما انطباعاً عنها وتأويلاً لها، وهذا التأويل يحمل سمات شخصية الرحالة وينبع من خياله، ومن هنا نجد بحث الرحالة الدائم عن الطابع الشرقى، وهذا البحث ليس بحثاً عن محلية معينة قابلة للوصف وإنما عن طابع يؤدى إلى الجدة والبعد والقدم، أى باختصار يؤدى إلى ما هو رومانسى، وهذا الطابع متعة فى حد ذاته لا يمكن التوصل إليه بالحواس وإنما بالخيال عن طريق مزج الحقيقة الداخلية بالحقيقة الخارجية.

كان كثير من الرحالة على وعى بهذا، أى باللحظة التى تمس شغاف القلب حين كانت الأشياء حول الرحالة «تميل إلى تجسيد الاستشراق الذى تعود أن يتأمله من خلال الكتب والصور» على حد قول جورج فيش الذى زار مصر عام ١٨٤٢، والحياة التى يحس الرحالة بأنها تدب فى داخله تجلب الفرحة وتضفى نفسها على المشهد وبالتالى تلونه أحياناً أو تعمق أبعاده مثلما نجد فى الفقرة التالية التى يصف فيها فيش انطباعه الأول عن القاهرة:

« كل شىء حولى، التربة الرملية الجافة والمبانى العربية ذات المآذن والقباب وأشجار النخيل الموسمية والسماوات داكنة الزرقة المنيرة والمائلة نحو الأفق كل هذا يذكرنى بأحلام اليقظة التى كنت أحلم بها فى السنوات الخوالى،

وأثناء ذلك أجد العرب والأتراك والأقباط واليهود والدراويش بأزيائهم الشرقية المتنوعة يساهمون في إكمال الصورة».

هناك أمثلة كثيرة على أثر تداعى المعانى على الواقع الخارجي، ومن أفضل ما يوضح وعى الرحالة بهذا التداعى ما يكتبه جون كنير الذى زار مصر عام ١٨٣٩ عن وجوده بالقاهرة :

«كذلك أحس إحساساً غريباً بأن المشهد ليس جديداً تماماً، فتنعش المبانى والناس لدى انطباعاً منسياً كما لو كنت أتذكر حلماً ما، وأستطيع أن أزعم أننى تعرفت على بعض الوجوه وسط حشود الغرباء ذوى اللحى والعمامات من حولى».

لكن بعيداً عن هذا التداعى الذى يسحر العقل، يجد الرحالة فى المشهد الفعلى - الذى يحيطه بهدوء ويعزله عن بقية العالم ويجعله يسبح فى داخله - راحة نادراً ما يحس بها فى الغرب «من خلال مناطق سحر واسعة الامتداد» ، فيسبح عقله وجسمه فى السكون ويمرحان، ويعبِّر معظم الرحالة عن هذا الإحساس بالاسترخاء وسعة الوقت الذى حرموا منه فى الغرب ومازال يحيا تحت سماء الشرق، وهذا الإحساس جسدى فى معظم الأحوال، لكنه له أثره على الروح، فالأشكال الغريبة التى لا تحصى تشعر الرحالة بالرائع والغامض الموحش. وفيما يلى مقتطف من القصيدة التى كتبها رتشارد مونكتون ميلنز بعنوان «**حمل مصر**» وهو يبحر فى النيل عام ١٨٤٢:

«يالها من سعادة فى نسيم الليل البارد أن تنساب بجوار إسنا وإدفو وكوم أمبو وكل منها بدورها متعة وتؤدى إلى مباهج أخرى :
الحركة التلقائية - ومع ذلك كافية للوصول إلى صخور أسوان الوردية - فى جدول مصر الرومانسى
عندئذ بعيداً عن غم الفكر أحس بالبريق الهادئ لليالى النوبة،
حيث السماء بأوسمتها الجميلة حافلة بالشموس والأقمار والفراغات المضيئة بالبياض وعلى بوابات ضخمة برزت أشكال المساء أشكال مخيفة كما لو كانت تعلق قلوب الناس وبدت الصور المهولة جليلة أمام ناظرى وملأت الوجوه الشغوفة صف العواميد كما لو كانت تنعى دينا منسيا أو معصياً».

لكن لا ينبغى أن نعزو هذا الإحساس بالطمأنينة والسعادة والبهجة الخالصة الذى يبعثه المشهد المصرى فى نفس الرحالة إلى المشهد وحده؛ فأهم جزء من المناظر الطبيعية هو الجزء غير المنظور الذى جاء مع الرحالة من الشمال، على حد قول سنجون، ونرى هذا واضحاً فيما كتبوا من وصف إذ ندرك أنهم وجدوا الراحة فى الجوانب الشرقية الخالصة من المشهد، فعلى سبيل المثال ، كثيراً ما داعبت الخيمة خيال الرحالة، فوجد فيها غذاء لمشاعره وأفكاره كما أثارت عقل عدد من الرحالة فأثارت مشاعرهم الرومانسية إزاء

المشهد سريع التغير، حيث يكتنفها المجهول الذى يظهر ويختفى دون أن يترك أثراً وراءه كما لو كان حلماً، ولخص ميلنز صفات الخيمة فى قصيدة قصيرة :

ما أسهل ما تقوم تلك الخيمة !
كما لو كانت تبرز
تلقائيا من الخضرة أو الرمل،
تفصح عن هدفنا
بل نحن الذين نغرس
هذا السطح، أينما نتجول
ونمتلك مقاماً مريحاً
ونكرم به الآخرين
نصنع الأريكة - نفرد السجاد
ونكوم الحشايا الجاهزة
فليسترح الجميع أيها القلب المتعب، أيتها الرأس المجهدة
من الألم والكبر لحظة
وامزحا بأحلامكما
الصحراء الصفراء تومض
ستار الأشعة الخفيف
ثم نطوى الخيمة ويحين الرحيل
تاركين بقعة من الرماد المحروق
علامة وحيدة على من حل
فى ترحاله حديثاً ،
ننطلق بفرحة إلى الأمام أمنين لنجد
بعد الظهر والمساء منزلاً
وقد تركنا خيمتنا ورائنا
لنواجه زبد البحر الشريد .

فى الواقع، بإمعان القراءة فى كتب الرحالة بعد عام ١٨٣٥ يتجلى لنا شغفهم بمصر فى انشغالهم الدائم بالطابع الشرقى، فلم يعد المشهد غاية فى ذاته، بل صار حافزاً لجمع الخيوط العامة للحقيقة، لا للأهمية فى ذاتها وإنما للإيحاء بجو معين وهو الانطباع المكثف جملة وتفصيلاً. فعندما يكتب لورد ليندسى لأمه وهو يبحر فى النيل جنوباً عام ١٨٣٦ لا ينقل لها صورة ما وإنما إحساسه بالمنظر وتوحده به . فيكتب لها ما تموج به نفسه فى لحظة عاشها كان فيها سعيداً بما يحيط به من الأشياء الشرقية : «خيمة وأريكة تركية وقارب عربى وأشجار نخيل والأهرامات» ونلاحظ أنه قلما يصف هذه الأشياء، ونلاحظ

كذلك أنه يركز على مشاعره ، فكان أكثر سعادة من هوراس تحت شجرته، لأن الأشياء التي تحيط به شرقية، تركية كانت أم عربية أم مصرية، يقول في جزء من خطابه :

«... لقد أدركت شعور هوراس بالطمأنينة القصوى عند استرخائه تحت شجرة المشمش البرى الخضراء بجانب نبع الماء في كوكريتيليس، لكن هذا لا يساوى شيئاً بالمقارنة بالاضطجاع تحت خيمة على أريكة تركية في قارب عربي وأنا أبحر في النيل جنوياً فها هي حياة خالدة الجمال تتناغم فيها القرى وأبراج الحمام والجوامع ومقابر الأولياء وصوامع النسّاك والمعابد والأهرامات والطرق المشجرة بالسنط الشائك، وأجمل من كل هذا بساتين تليها بساتين من أشجار النخيل التي تميل رؤوسها المكللة بالسعف بطيئاً مثل الوصيفات الشابات عندما يهبط النوم ويقودهن إلى سررهن الحريرية».

«كل هذا نعسان ينساب بجانبي كما لو كان مشهداً في حلم في تلقائية وسلام وصمت».

الفصل التاسع

رومانس وحقائق الرحلات إلى مصر

أبدى سير كيلر كوتش رأياً صائباً عندما كتب فى مقدمته لكتاب «**إيوتن (من الشرق)**» فى بداية القرن الحالى :

«ربما تكون هيمنة الإرادة الغربية على الشرق هيمنة مؤقتة... فهى بالتأكيد إرادة زائلة بالمقارنة بما للشرق من سحر على الخيال الغربى، كنجليك يرسم لنا صورة إجمالية فقط للتفاعل بين تلك الهيمنة وهذا السحر فى لحظة سعيدة، لكنها صورة متقنة وخلابة وتتدفق بالحيوية».

فما انشغال الرحالة بالطابع الشرقى إلا أحد مظاهر سحر الشرق المسلط على العقل الغربى، فى عام ١٨٤٤ دون ألسكندر وليام كنجليك انطباعاته عن زيارته لشرق حوض البحر الأبيض المتوسط، ونجح في أن يصور بخيال مكثف ما كان غيره من الرحالة يحاولون أن يتتبعوه، ونجح نجاحاً قلما استطاع هؤلاء الرحالة أن يصلوا إليه، فنجد فى كتابه «**إيوتن**» إحساساً بالبهاء والروعة والمغامرة وإحساسا بالخالد والزائل وفوق كل هذا إحساساً بالتناقض الحاد بين الشرق والغرب، وكل هذه الأحاسيس يقدمها لنا بسعادة واقتدار، وعندما نشر الكتاب قال عنه صديقه واربرتون: «يكتب الرحالة عن الشرق، أما كنجليك فيقدم لنا الشرق ذاته»، والقارئ العادى لم يكن فى حاجة إلى أن يُعرف بشكل أسواق القاهرة أو الأهرامات مثلاً ، بل أن يشعر بأن هذه الأسواق والأهرامات تنتمى إلى عالم آخر. ونجح هذا الكتاب فى أن يوفر للقارئ هذا الإحساس نجاحاً كبيراً، إذ حرص على نقاء الشكل، وأقصد بنقاء الشكل أنه لم يحش كتابه بمعلومات وأوصاف كثيرة مثلما فعل غيره، وإنما كرس قلمه لوصف انطباعاته، إذ أدرك أن الحقيقة الموضوعية لم تعد تهم القارئ لذاتها، ووضع فى تمهيده للطبعة الأولى من الكتاب تصوره عن الرحالة الذى يتطلبه العصر، ذلك الذى «يخبرك بالأشياء كما تبدو له وليس كما هى فى الحقيقة»، والواقع أنه يتحدث عن نفسه هنا، كما أنه يتحدث فى موضع آخر عن عادة هذا الرحالة «فى إرجاع العالم الخارجى بأكمله إلى أحاسيسه»، وجسدت شخصية كنجليك هذا النوع من الرحالة تجسيداً كاملاً، مما ساعده على نقل ما كان هو وزملاؤه مصممين على الإمساك به، وهذا ما أطلقوا عليه رومانس وحقائق الرحلات الشرقية .

كان الرومانس والحقائق يكملان بعضهما ولا يمكن فصلهما، ويكمن هذا المزيج من الرومانس والحقائق فى الإحساس بأن العالم الشرقى ليس مختلفاً عن عالم الرحالة فحسب بل ومناقضاً له أيضاً، وتولد هذا الإحساس عند كنجليك لأن أحاسيسه كانت هى المرجع لكل ما يراه فهو يركز تركيزاً واعياً على ذاتيته، لذلك نستشف فى كتابه ذاتاً قوية، وهذه الذات «أشبه ببايرون فى الصحراء» عزيز النفس مضطرم الروح يتسلل إلى الشرق مصطحباً معه مجد ورونق إنجلترا فى عهده، لا مبال، متغطرسا، كثير الكلام ، يشق طريقه يجتاز عقبة تلو أخرى إلى أن ينتصر فى النهاية بأعجوبة، يمضى فى الصحراء وحيداً بدون مرشدٍ إلى السويس، حتى قطاع الطرق الذين يسطون على صبى عربى مسكين فيما بعد يدعونه يذهب دون أن يضايقوه، بل يسرجون له حماراً ليركب عليه ، وطوال الكتاب يصور الباشوات والعرب الذين يقابلهم كما لو كانوا أقزاماً بجانبه كعملاق، وعندما يتفشى الطاعون فى القاهرة ويبيد كل من يعرفهم أو يحتك بهم ينجو من الطاعون بأعجوبة خاصة وأنه لم يلتزم باجراءات الوقاية، وفيما يلى ما كتبه عندما كان يعبر الشوارع بحماره وحمّاره يفسح له الطريق:

> «المر الضيق الذى أفسحه لى زعيق الحمّار أتاح لى، وإنْ بصعوبة، أن أواصل السير قدُماً لمسافة طويلة دون أن ألمس أحداً، وكانت محاولاتى لتجنب لمس الناس لعبة أتسلى بها فى وحدتى، وإذا مررت بشارعٍ دون أن يلمسنى أحد أشعر بالفوز، أما إذا لمسنى أحد أشعر بالخسارة، خسارة دو فى المقامرة كما يقول الأوربيون، لكننى سرعان ما أعتبر هذه الخسارة شيئا تافهاً، فما خسرت إلا تلك اللعبة وبالتأكيد سيحالفنى الفوز فى المرة القادمة».

هذا الإحساس بالصراع والبطولة الخارقة والمأساة الحقة ينقله لنا كنجليك من خلال صياغة الجمل وكذلك من خلال منهجه فى التناول ، وهو منهج يعتمد على الموضوع ونقض الموضوع، فالصحراء الرمضاء تليها خضرة مصر الرطبة، وإحساسه بالحياة المنتصرة الباسلة يقدم وسط مشاهد الكآبة والموت فى القاهرة، ومخاطر طريق السويس ومتاعبها تنتهى بنعمة سريرٍ دافئ ونظيف حيث من دواعى البهجة «أن يرقد المرء على بياضات جميلة، يداعب النوم ويستيقظ مرة أخرى لكى يعاود النوم»، هذا العالم ملىء بالمتناقضات البينة التى تحفز انتباهنا طول الوقت، وفيه يقدم الكاتب رومانس صيغ بطريقة لم يسبقه إليها رحالة غيره، وهو لا يصور الشرق بوجه عام ومصر بوجه خاص بطريقة رومانسية مباشرة بالرغم من أن كتابه محاولة مستمرة فى ذلك السبيل، ويتمثل فى أنه أضفى على الشرق صفات دنيوية: فبعد أن يصف ضخامة الأهرامات يقول إن هذه الأهرامات أشياء من هذا العالم بناها رجال «يأكلون البصل لقاء جهودهم»، لكنه يضمر الرومانس فى

أوصافه، فيولد كتابه فينا الإحساس بأن الشرق عالمٌ غريبٌ لا يزوره الرحالة بدافع الملل ولكن لكى يقوى عزيمته، فالشرق يستنهض روح المغامرة لدى الرحالة، وهذه المغامرة نابعة بدورها من الرغبة فى الرائع والمجهول.

ترتكز رومانس وحقائق الرحلات الشرقية فى معظم كتابات تلك الفترة على هذا التفاعل بين الرحالة والبيئة الجديدة، بين الغرب والشرق المتناقضين دوماً، أو على عادة الرحالة «فى إرجاع العالم الخارجى بأسره إلى إحساساته» على حد قول كنجليك كما أسلفنا.

كان سحر مصر يكمن فى الرحالة ذاته بقدر ما يكمن فى مصر ذاتها، فيقول إليوت واربرتون فى كتابه «**الهلال والصليب**» (١٨٤٥) :

> « هل صار المجتمع ثقيلاً على نفسك؟ هل أثار الحب أو الكراهية أو أية عاطفة زائلة أخرى عاصفة على قارب حياتك؟ هل تغلغلت القصص العجيبة للعالم القديم فى روحك؟ وهل تنشد تحقيقها؟ أن مجرد الفضول والقلق دفعاك إلى التجول؟ إن كان كذلك، فتعال إلى النيل!».

كان واربرتون صديقاً لكنجليك، وما كتب الأخير كتابه «**إيوثن**» إلا ليكون مرشداً لواربرتون فى رحلته إلى الشرق، لكن واربرتون كان أكثر إتقاناً وتفصيلاً من صديقه فى التعبير عن رومانس وحقائق الرحلات إلى مصر . ومن ذلك وصفه للإبحار فى النيل:

> « الإبحار فى النيل على ضوء القمر له سحرٌ لا يوصف، فكل منظرٍ لطيفٍ وكل صوتٍ ينبض بالموسيقى وكل نسيمٍ يفوح بالبلسم، أضواء بعيدة تشعُ بوهن بين مآذن لا تكاد ترى تميز مدينة القاهرة، وتصل أصوات المؤذن بين الفينة والأخرى واهنة إلى الأذن، وقد تكسر حاجز الصمت صرخات طائر بجعٍ مفزوعٍ أو كركرة سمكة ضخمة للحظات. لكن الهدوء الذى يلى ذلك أعمق بكثيرٍ ، فتبدو الطبيعة مستغرقة والعالم طيب الرائحة كما لو كنا فى حلم حتى لا نكاد نحس بأنفسنا، ولسنا فى حاجةٍ إلى النوم لكى نحلم».

يؤكد واربرتون فى صوره هذا العالم المليء بالأحلام، ففى هذا العالم يفقد المرء هويته ويحس بسعة الوقت والقدم والبعد والغموض، وبحياة خالية من المشاغل تتناقض تناقضاً بيناً مع مشاغل وصراعات الحياة الأوروبية، لكن بالإضافة إلى روح الرومانس يقدم كتاب «**الهلال والصليب**» نفسا مضطربة تمل من النيل وتشتاق للعودة إلى حياة العمل، بالرغم من أن الكتاب يتغنى بتمهل وهدأة المشهد، ونتيجة لهذا الشوق يستحضر الكاتب المشهد الأوروبى دوماً ويقارنه بالمشهد الشرقى بل ويفضله عليه، ويفصح عن إعلاء التفوق الأوروبى مما أصبح خصيصة قومية، وها هو واربرتون يصف سيدة من الحريم :

> «أوشمة حريرية غنية بالألوان وناعمة كقوس قزح تلتف حول خصرها بداية من الجبين الأبيض إلى الأطراف جميلة الاستدارة، غارقة لنصفها فى الوسائد المنتفخة، وهذا الوضع يوحى بسيمفونية الراحة... الغموض والعزلة

والخطر تحيط بالمرأة فى الحريم ولكن بيتًا إنجليزيًا أو جبلا أسكتلنديًا أو خوياً إنجليزياً أكثر جاذبية هنا من خدر المرأة فى مصر، ونساؤها ذوات القلب النقى والعقل الراجح والقبعة الريفية على الرأس جديرات بأن يغامر المرء بحياته من أجلهن خيراً من الجمال الشهوانى الملفوف فى الشرق».

نجد فى هذا العرض الرومانسى وحقائق الرحلات الشرقية خيبة أمل تميز كثيراً من كتابات تلك الفترة، وتتضح أكثر عند ثاكارى فى كتابه **«مذكرات رحلة من كورن هيل إلى القاهرة الكبرى»**، فيقول :

«إن رسم المناظر الطبيعية فى الكتب رسم سيء، وتقدم قصيدتا شيلى خير صورة أعرفها للأهرام ويفوق جمالها الحقيقة بكثير، فيمكن أن يشرع المرء فى قراءة الكتاب وخياله يستحضر صورة من تلك الكلمات الرائعة لا تشوبها حقائق تافهة أو حقيرة».

لكن خيبة أمل ثاكارى لا تنبع من حقائق الرحلات الشرقية كما عايشها بالرغم من وعيه ببؤس وانحطاط الناس، وتتضح خيبته فى إدانته لهذه الحقائق أكثر من أى رحالة آخر، ويشعر المرء أن سهام معارضته الأدبية الساخرة لم تكن موجهة إلى المشهد فى حد ذاته بقدر توجهها إلى الذين بالغوا فى قدر المشهد والذين أفسدوه، أى الرحالة الرومانسيون وكذلك من يقضون إجازاتهم فى مصر والمسافرون إلى الهند، الذين تدفقوا إلى مصر وبدأوا بالفعل فى تغيير طابعها، كان وعى ثاكارى بالرحالة الرومانسيين واضحاً، فهو يشير إليهم دائماً ويتعمد السخرية من المواقع والمناظر التى كانوا يفضلونها مثل النيل والأهرام والمنظر من القلعة وغروب الشمس فى مصر، لكن سهام ثاكارى الأساسية كانت موجهة إلى السائحين الإنجليز الذين جاءوا إلى مصر، إذ يرى خيبة أمل فى أن يقطع السائحون كل تلك المسافة ليصلوا إلى «إنجلترا - فى فندق فرنسى يديره رجل إيطالى فى مدينة القاهرة الكبرى فى أفريقيا» وثاكارى يسخر من زملائه السائحين ومن «تلاشى الإحساس بالرعب عند المزاحمة على الطعام»، ومن خريج جامعة أكسفورد المشغول جداً بفخذ من اللحم البارد، ومن أحد سكان شارع داوننج فى تركيزه على عنقود عنب، لكن ألا يكمن شيء ما خلف هذه السخرية وهذا الاستهزاء؟ ألا يوجد دليل مكتوم على السخط والغضب وربما اعتراض مستور ؟ فى الحقيقة لم يستطع ثاكارى أن ينجى ذاكرته من تداعى المعانى الذى كان يرتبط بالمشهد، كما أنه عندما حاول أن يسخر من انطباع هذا المشهد كان متحمساً فى داخله للاحتفاظ به وساخطاً لأن هذا الانطباع كاد يمحى تماماً، ومن هنا تنبع المفارقة، وعلاوة على ذلك نجده أحياناً فى معارضته الأدبية الساخرة الممتعة يمسك بهذا الانطباع ويوصله لنا بكل بريقه وحيويته، ومن ذلك وصفه لشوارع القاهرة :

«كيف أصف لك جمال الشوارع! الرونق الخرافى وتنوع المنازل والطرق المقنطرة والأسقف المعلقة والشرفات والأروقة والالتقاء الجميل للضوء والظل والضوضاء والضجيج وطيبة الناس والأسواق التى لا تنتهى برونقها الفطرى ! توجد ثروة للرسامين فى القاهرة ومواد فنية لجمعية كاملة منهم، لم أر مطلقاً مثل هذا التنوع فى العمارة والحياة والصور واللون اللامع والضوء والظل، فهنا صورة فى كل شارع وفى كل دكان بالسوق».

الفصل العاشر

المرحلة الأخيرة

إن شعور الطبقة المتوسطة بالملل، والتسهيلات الجديدة فى السفر بما فيها تحسينات الطريق البرى، إلى جانب البحث عن الطابع الشرقى والشهرة التى بدأت مصر تكتسبها كمنتجع لقضاء الإجازات، كل هذه العوامل وبعض العوامل الأخرى أدت إلى مجىء أعداد غفيرة من الرحالة الإنجليز لزيارة مصر فى الخمسينات وما بعدها من القرن التاسع عشر، ولم يضف هؤلاء الرحالة شيئاً جديداً أو ذا قيمة على المشهد المصرى، مما جعل إسهامهم فى التأويل الأدبى لمصر يكاد لا يذكر، ومع ذلك ينبغى علينا أن ندرسهم كمجموعة رحالة وكتّاب مختلفين عن كل من سبقهم، فلقد بثوا نغمة جديدة فى الكتابة عن مصر، وبرزت هذه النغمة فى معظم الكتابات التى تناولت مصر فى العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر.

نتجت هذه النغمة الجديدة لما طرأ من فتور البعد الرومانسى فى زيارة مصر، وهذا الفتور نتج بدوره من بعض التغيرات المادية التى استشرت فى البلاد مثل التحسينات فى الطريق البرى أو قناة السويس، لكن هناك جانباً آخر لم تشر إليه: فالتغير حدث داخل الرحالة أنفسهم أكثر منه فى الزيارة أو فى مصر، ويمكننا أن نسميه تغيراً فى الإحساس تولد من تسهيلات المواصلات فى تلك الفترة، فسهولة المواصلات شجعت جموعاً من السائحين على التنقل، كما كانت الكتابات العديدة عن الرحلة بمثابة المرشد لهم وتدلهم على ما يمكن أن يشاهدوه ، ويمكننا القول: إنّ «السائح» كما نعرفه اليوم كان تطوراً طبيعياً للرحالة أو بالأحرى كتّاب الرحلات، فالانتشار الواسع لهذا النوع من الكتب وكذا اهتمام السائح عموماً بملامح وجوانب معينة من مصر، فيراها ويحس بقيمة الرحلة من خلالها، ومن هنا ينشأ البحث المتعمد عن الأماكن الجديرة بالمشاهدة، وبالتالى التصنع، لأن ما كان فردياً أصبح عاماً، ولأن المنظر من القلعة، على سبيل المثال، أيقظ إحساساً بالجمال أو العظمة لدى الرحالة السابقين ومن المفترض أن يوقظ نفس الأحاسيس لدى كل من يأتى لرؤيتها، وكتب ثاكارى معارضة ساخرة لربط أحاسيس معينة بمناظر بعينها، واصفاً غروب الشمس فى مصر بعد أن وقع من على ظهر حماره بعد ظهر أحد الأيام فى القاهرة:

«بعد هذه المغامرة الخطيرة مباشرة غطست الشمس أيضا فى الرمل ـ ولكن لا لتصعد مرة أخرى مثلما فعلت أنا بسرعة كبيرة ـ ، وشاهدت هذه الظاهرة اليومية للغروب بمتعة (حيث أننى كنت مشغولاً فى تلك الساعة بالعشاء مع صديق قديم)...».

كما أن كنجليك يعترض فى تمهيده لكتاب« **إيوتن**» على ما كتبه رحالة ذلك العصر :

«حكايتى (يقصد إيوتن)... لا تحفل بتلك الانطباعات التى كانت من المفترض أن تطرأ على أى «عقل سليم»، وإنما بالانطباعات الفعلية والحقيقية...».

صار وصف الرحالة السابقين لمصر «مفروضاً» على السائح فى شكل مجموعة من المشاهد والمشاعر حتى قبل أن يجىء إلى مصر، وقيدت حريته واستقلاله لدرجة أنه فقدهما تماما. وهنا نجد قدراً من الزيف فى رغبته فى إصدار الأحكام والإدانة دون معرفة كافية أو تمييز وكذلك نتج عنه نفوره من الواقع الخارجى.

عندما جاء الرحالة ليشاهد أجزاء معينة من مصر، لم يستطع أن يراها كما يحلو له ، فبدأ ينظر إلى الواقع الخارجى بقدر كبير من الحياد، فنظر إلى المشهد بموضوعية ولم يلحظ أخلاق الناس وعاداتهم على سبيل المثال، ومن هنا امتلأت كتابات هؤلاء الرحالة بتفاصيل فقيرة وشاحبة خالية من الإمتاع، فعلى سبيل المثال، نجد سائحة تدعى السيدة ديمر التى زارت مصر فى عامى ١٨٣٩ - ١٨٤٠، تتناول عدداً من المشاهد التى تناولها كنجليك من قبل، لكن الواقع الحى المهم عنده يتوارى عندها ويتحول إلى شىء مبتذل فاقد الحياة، وهناك كذلك ماريان بوستانز التى تطلق على نفسها «صائدة مشاهد»، لكنها سطحية جداً مثل كل أفراد طبقتها الاجتماعية ولا تسلم نفسها للحظة المعاشة، وإنما تحاول، بموضوعية متعجرفة، أن تنقل المشهد بألوان زاهية مبهرجة مما لا يدل على ذوق سليم ، فهى تؤكد على عنصر الغريب حتى تنال قبول العامة، تحول عشق الرحالة للطريف على يد السائح متبلد الشعور إلى شغل بما هو مثير وبالتالى لجأ إلى المغالاة فى اللغة والأفكار، وأدى هذا التغير إلى انحطاط الطابع الشرقى من الرومانسى إلى الشاذ لأن تداعى المعانى الذى استثار هذا الطابع فى نفس الرحالة ضاع عند السائح، وبما أنه عجز عن إدراك الطابع الشرقى أو الإحساس به كما يحلو له، نظر إليه على أنه مجرد صفة من صفات المشهد صفة غامضة عديمة المعنى ومع ذلك يجب السعى ورائها، وتبنى السائح هذا «الاتجاه» مثلما تبنى فكرة الرحلة ذاتها، وفيما يلى يصف أحد السائحين كيف أن حى بولاق أيقظ لديه ذكريات «**ألف ليلة وليلة**» :

«جلس أبو الحسن عند بوابة المدينة ورأيت هارون الرشيد خارجاً فى هدوء ومتنكراً فى زى تاجر من الموصل... وكان السندباد الحمّال أيضا مسرعاً إلى السندباد البحار، تحولت وشاهدت شكله يتلاشى فى ضوء الشفق، ومع ذلك أشك فيما إذا كان قد وصل إلى بغداد فى الميعاد...».

مع مجيء السائح إلى مصر، كانت النتيجة أن تلاشى التأويل الأدبى لمصر عند الرحالة الإنجليز.

يخرج سائحان عن إجماع حشود السائحين الذين ختموا قصة سحر مصر للرحالة والكتّاب الإنجليز خلال القرن التاسع عشر، فلا يمكننا أن نصنفهما مع الآخرين لاختلافهما عن معظم من سبقهما وهما بيل سنجون وليدى داف جوردون اللذين زارا مصر فى عامى ١٨٥٠ و١٨٦٢ على الترتيب، وعاش كل منهما فى مصر لفترة تتراوح بين أربع أو ست سنوات، وبالرغم من اختلاف ميولهما، تكاد رؤيتهما تتماثل، فلم يتركا لنا الانطباع الأول مثل الرحالة الآخرين، بل تركا مجموعة متكاملة من الانطباعات ، أو بالأحرى تجربة كاملة، قد تكون أقل رومانسية عن تجربة كنجليك أو واربرتون مثلاً، لأنها تتمثل كل أبعاد الواقع وليست مجرد انطباع.

كان بيل سنجون الابن الثانى لجيمس أوجساس سنجون، عاشق مصر الذى أقام بها فى الثلاثينات، جاء ابنه الى مصر فى ١٨٤٨. ونتيجة لارتباطه بالأوروبيين تبنى نفس الاتجاه اللامبالى المتشكك رغما عنه، ولم يستطع أن ينظر إلى مصر نظرة جادة، لذلك قرر أن يغير «الجو» الذى يعيش فيه، فاتجه للعيش مع الست نظلة وهى سيدة من الإسكندرية عرفها لبعض الوقت، وكتب قصة ساحرة نشرها فى باريس عام ١٨٥٠ بعنوان «**إقامة لمدة عامين وسط عائلة سكندرية**» ، ولا تخلو هذه القصة من الإعجاب بالنفس (**الونر**) الذى تحدث عنه كنجليك ، إلا أنه لا يشوش رؤيتنا للمشهد لأنه مجرد جزء منه ، كما أن الشخصيات التى رسمها فى هذه القصة مثيرة للاهتمام مثل الست نظلة الأم الحنون، وحنا المتعصب، والست صوفى الزوجة العاشقة، ووردة الحورية ذات العيون السوداء التى أغرمت بالمؤلف، وإسكندر التاجر السكندرى وغيرهم، وهذه الشخصيات التى صورها بيل سنجون بحيوية وكثافة تمثل نماذج بشرية وبالتالى تساعد القصة فى تحقيق هدفها الذى يتمثل على حد قول المؤلف فى «تصوير مرحلة معينة من الأخلاق والعادات الشرقية»، وهذه الشخصيات وقصص أخرى يضفرها المؤلف بعفوية فى نسيج العمل تهدف إلى خلق الطابع الشرقي، يصور المؤلف هذا الطابع تصويراً مختلفاً لأنه على دراية بالواقع أكثر بكثير من غيره من الرحالة، ولم يكن السبب فى عشقه لهذا الطابع مجرد طرافته، بل حسن معرفته به أيضا . فرسم صورته باقتدار وإقناع نتيجة لعمق التجربة ومتعتها، فلا نجد فى هذا التصوير الحذلقة والحماس مما يشوب الانطباع الأول عند كثير من كتّاب الرحلات.

يظهر نفس الاتجاه فى كتاب آخر له عن مصر بعنوان «**حياة القرية فى صعيد مصر موضحة بالصور**» (١٨٥٢)، الصور فيه ذات ألوان محلية متنوعة ومتدفقة بالحيوية، تصور حياة الفلاح ومساكنه وعاداته وتقاليده وطقوسه الدينية ومعتقداته ببصيرة ثاقبة وحسن فهم، وترجع جاذبية هذا الكتاب وقيمته إلى أنه أول محاولة جادة للاهتمام بالعامة من أهل مصر، ويشكل مرحلة جديدة فى تطور كتب الرحلات المصرية، إذ يبين تعمق وعى الرحالة

بمصر ورغبته فى التحول إلى مجالات جديدة عند استنفاد المجالات القديمة، ونجد فى هذا الكتاب نفس البحث عن الطابع الشرقى مثلما عند غيره من الرحالة، خاصة وأن سنجون كان مثل والده عاشقا لمصر مشغولاً دوماً «بالشوق الذى لا يشبع إلى الطرافة»، بيد أن هذه الدراسة لا ترجع إلى مجرد حب الكاتب للطريف، لأنه يقدم المعلومات والشروحات والايضاحات بدافع إنسانى نبيل، ربما يطغى عليه بعض التحيز للفلاح ولكن بدون أى إحساس زائف أو رغبة فى انتهاك الإنسانية بالتمادى فى وهم مؤقت أو تعصب ذى سطوة.

رسمت ليدى داف جوردون فى مجموعة خطابات بعثتها من مصر صورة للبلد غنية بالجوانب الإنسانية واتساع الرؤية وعمق الفهم، وفيما يلى ما كتبه جورج مريديث عن هذه السيدة :

> «تمثل صورتها الإحساس المتبصر الشامل، ولم تخدع جوردون أبداً بالكتاب الكثيرين، مسلمين كانوا أم مسيحيين، الذين دفعتها حكاياتهم عن الشقاء والظلم إلى أن تقدم خدمات إنسانية للمصريين، ولقد وجد فيها المصريون البعد الإنسانى الذى يعادل الصورة التى يرسمها الكاتب الساخر الضجر، فناصرت ساكنى ضفاف النيل فى زمانها ونظرت إليهم نظرة ود وعطف...».

جاءت داف جوردون إلى مصر عام ١٨٦٢ وظلت بها حتى ماتت عام ١٨٦٩ بسبب داء الصدر الذى جاءت لتستشفى منه فى مناخ مصر الدافئ، وظهر الجزء الأول من كتابها «**رسائل من مصر**» عام ١٨٦٥، وبعد ذلك بعشر سنوات ظهر الجزء الثانى مشتملاً على «**آخر رسائل من مصر**» بالإضافة إلى مذكرات كتبتها ابنتها جانيت روس، وظهرت الطبعة الثانية عام ١٨٧٦، ثم ظهرت طبعة منقحة قدم لها جورج مريديث عام ١٩٠٢، وظهرت ترجمة عربية لبعض الرسائل وطبعت فى القاهرة منذ أربع سنوات.

عثرت على رسائل ليدى داف جوردون وقرأتها لأول مرة منذ حوالى خمس سنوات فى إنجلترا وبعد ذلك قرأتها للمرة الثانية والثالثة، ولم تفتننى مثلما فتننى كتاب «**إيوتن**»، ولكنها هزتنى هزاً عنيفاً وتخللت عقلى كما لو كانت تجربة واقعية، وصفها الحى للفلاحين بصعيد مصر الذين عاشت بينهم ومخاوفها على مصيرهم وتطلعاتها لهم واهتمامها الإنسانى بهم واهتمامهم الإنسانى بها ، كل هذا أتذكره ولا يمكن أن يمحى من ذاكرتى.

ولا نجد فى هذه الرسائل رونقاً ولا بحثاً عن الطابع الشرقى ولا شيئاً من «أنانية» الرحالة التى وصفها كنجليك فى كتاب« **إيوتن**»، ولكننا نجد إيماناً راسخاً بأخوة البشر وبالكرامة الإنسانية، وفيما يلى مقتطف من إحدى رسائلها:

> « ... تتحول شفقة المرء إلى عاطفة عندما يجلس وسط الناس ويحس بكل ما يقاسونه، مثلما أفعل أنا، وعلى الأقل لا أستطيع أن أصفح عن الأوروبيين والمسيحيين الذين يساعدون على تدمير هذه المزامير المخدوشة».

هذه هى طريقتها فى الكتابة عن الذين عاشت بينهم وأحبتهم، فلا تكتب بأسلوب صاخب أو رصين، وإنما بهدوء وصدق كما يكتب الإنسان عن أعز الأشياء عليه وأعظمها بروية وحماس معتدل بإخلاص وصدق، قال عنها مريديث إنها لم تكن الشخص الذى «يغطى من يعرفهم بغلالة ذهبية ويلمعهم» مثلما يقول هوراس وإلبور عن مدام دى سيفينى، فلقد جعلتهم يلمعون من الداخل، ربما ببريق معتدل ولكن بطريقة معقولة لها مبرراتها، وهاهى رسالة من آخر رسائلها إلى زوجها :

«عزيزى أليك :

لا تفكر فى المجىء إلى هنا، حيث إنك تخشى الطقس الحار... أستطيع أن أنتظر النهاية بفارغ الصبر وسط أناس طيبين وعطوفين... وكان مشهد وداعهم لى فى الأقصر مشهداً محزناً لأنهم كانوا على ثقة من أنهم لن يرونى مرة أخرى، وكان عطف الجميع مؤثراً حقاً بداية من القاضى الذى أعد مقبرتى وسط مقابر عائلته إلى أكثر الفلاحين فقراً».

وماتت جوردون بعد ذلك بفترة قصيرة .

قائمة الكتب المذكورة فى النص

Belzonui, Giovanni baptista, "**Narrative of the Recent Discoveries in Egypt and Nubia**" (1820).

Carré, Jean - Marie, "**Les voyageurs et écrivains francais en Egypte**" (1932).

Curzon, Robert, "**Visits to the Monasteries of the Levant**" (1849).

Duff-Gordon, Lady, "**Letters from Egypt**" (1865).

---------------, "**Last letters from Egypt**" (1877).

Head, C.F., "**Eastern and Egyptian Scenery**" (1833).

Henniker, Sir Frederick, "**Notes during a Visit to Egypt**" (1823).

Kinglake, Alexander William, "**Eothen**" (1844).

Lane, Edward William, "**A Description of Egypt**"

------------, "**The Manners and Customs of Modern Egyptians**" (1826).

Russell, "**Egypt**" (1831).

Sherer, Moyle, "**Scenes and Impressions in Egypt and Italy**" (1825).

St. John, Bayle, "**Two Year's Residence in a Levantine Family**" (1859).

---------, "**Village Life in Upper Egypt, With Sketches of the Said** (1852)."

St. John, James Augustus, "**Isis**" (1853).

Thackeray, William Makepiece, "**Notes of a Journey from Cornhill to Grand Cairo**" (1846).

Waghorn, Thomas, "**Overland Guide to India by Three Routes to Egypt**" (1844).

Warburton, Eliot, "**The Crescent and the Cross**" (1845).

Wilkinson, Sir John Gardner, "**The Manners and Customs of Ancient Egyptians**" (1837).

-----------, "**The Topography of Thebes and General Survey of Egypt**" (1835).

المحتويات

المؤلف فى سطور :

الدكتور رشاد رشدى (١٩١٢ - ١٩٨٢)

- أكاديمى وناقد وكاتب مسرحى ومترجم.
- أول رئيس مصرى لقسم اللغة الإنجليزية بجامعة القاهرة (جامعة فؤاد آنذاك).
- حصل على الدكتوراه من جامعة ليدز عام ١٩٥٠ ببحث عن الرحالة الإنجليز فى مصر فى عهد محمد على (١٨٠٥ - ١٨٤٨)، وكان أول خريج من الجامعة المصرية يحصل على الدكتوراه من إنجلترا.
- ألقى محاضرتين فى الجمعية الجغرافية عام ١٩٥٠، الأولى عن أدب الرحلة كجنس أدبى ازدهر فى القرن التاسع عشر، ولخص فى الثانية موضوع رسالته للدكتوراه، ونشر فى العام التالى سلسلة من الفصول المبسطة فى الموضوع نفسه ألقاها فى الجامعة الأمريكية بالقاهرة، ونشرها بعد ذلك فى كتاب «سحر مصر» الذى بين أيدينا.

المترجم فى سطور :

الدكتور جمال الجزيرى

- أكاديمى وناقد ومترجم وكاتب قصة.
- حصل على الدكتوراه فى الأدب الإنجليزى من جامعة عين شمس.
- من مجموعاته القصصية «أساطير» (١٩٩٦)، و«فتافيت الصورة»(٢٠٠١)، وبدايات قلقة (٢٠٠٣). ومن كتبه النقدية «الحوار مع النص : جماعة بدايات القرن نموذجًا» (٢٠٠٢).
- له عدة ترجمات عن الإنجليزية من بينها : «أسطورة بروميثيوس فى الأدبين الإنجليزى والفرنسى» و«تروتسكى والماركسية» و«فرويد» و«رولان بارت»... وغيرها.

المراجعة فى سطور :

الدكتورة فاطمة موسى

- أكاديمية وناقدة ومترجمة.
- حاصلة على الدكتوراه من جامعة لندن عام ١٩٥٧ برسالة موضوعها «الحكاية الشرقية فى الأدب الإنجليزى ١٧٨٦ : ١٨٧٤».
- رئيسة قسم اللغة الإنجليزية بجامعة القاهرة (١٩٧٢ - ١٩٧٨).
- مقررة لجنة الترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة.
- من مؤلفاتها باللغة العربية : بين أدبين : دراسات فى الأدب العربى والإنجليزى (١٩٦٥) - وليم شكسبير شاعر المسرح (١٩٦٩) - فى الرواية العربية المعاصرة (١٩٧٢)- سيرة الأدب الإنجليزى للقارئ العربى (١٩٩٧) - نجيب محفوظ وتطور الرواية العربية (١٩٩٩) - سحر الرواية (٢٠٠٠). ومن مؤلفاتها بالإنجليزية : سير وليم جونز والرومانتيكيون (١٩٦٠) - الرواية العربية فى مصر من ١٩١٤ إلى ١٩٧٠ (١٩٧٠). ولها أكثر من ثلاثين بحثًا بالإنجليزية عن موضوعات مختلفة، ومن أشهر ترجماتها رواية نجيب محفوظ «ميرامار» (١٩٧٨) ومسرحية «الملك لير» لشكسبير (١٩٦٨)، كما أشرفت على إصدار خمسة أجزاء من قاموس المسرح (الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٦ : ١٩٩٩).
- حاصلة على جائزة الدولة التقديرية فى الآداب (١٩٩٨).

المشروع القومى للترجمة

١- اللغة العليا (طبعة ثانية)	جون كوين	ت : أحمد درويش
٢- الوثنية والإسلام	ك. مادهو بانيكار	ت : أحمد فؤاد بلبع
٣- التراث المسروق	جورج جيمس	ت : شوقى جلال
٤- كيف تتم كتابة السيناريو	انجا كاريتنكوفا	ت : أحمد الحضرى
٥- ثريا فى غيبوبة	إسماعيل فصيح	ت : محمد علاء الدين منصور
٦- اتجاهات البحث اللسانى	ميلكا إفيتش	ت : سعد مصلوح / وفاء كامل فايد
٧- العلوم الإنسانية والفلسفة	لوسيان غولدمان	ت : يوسف الأنطكى
٨- مشعلو الحرائق	ماكس فريش	ت : مصطفى ماهر
٩- التغيرات البيئية	أندرو س. جودى	ت : محمود محمد عاشور
١٠- خطاب الحكاية	جيرار جينيت	ت : محمد معتصم وعبد الجليل الأزدى وعمر حلى
١١- مختارات	فيسوافا شيمبوريسكا	ت : هناء عبد الفتاح
١٢- طريق الحرير	ديفيد براونيستون وايرين فرانك	ت : أحمد محمود
١٣- ديانة الساميين	روبرتسن سميث	ت : عبد الوهاب علوب
١٤- التحليل النفسى للأدب	جان بيلمان نويل	ت : حسن المودن
١٥- الحركات الفنية	إدوارد لويس سميث	ت : أشرف رفيق عفيفى
١٦- أثينة السوداء	مارتن برنال	ت : بإشراف: أحمد عتمان
١٧- مختارات	فيليب لاركين	ت : محمد مصطفى بدوى
١٨- الشعر النسائى فى أمريكا اللاتينية	مختارات	ت : طلعت شاهين
١٩- الأعمال الشعرية الكاملة	چورج سفيريس	ت : نعيم عطية
٢٠- قصة العلم	ج. ج. كراوثر	ت : يمنى طريف الخولى / بدوى عبد الفتاح
٢١- خوخة وألف خوخة	صمد بهرنجى	ت : ماجدة العنانى
٢٢- مذكرات رحالة عن المصريين	جون أنتيس	ت : سيد أحمد على الناصرى
٢٣- تجلى الجميل	هانز جيورج جادامر	ت : سعيد توفيق
٢٤- ظلال المستقبل	باتريك بارندر	ت : بكر عباس
٢٥- مثنوى	مولانا جلال الدين الرومى	ت : إبراهيم الدسوقى شتا
٢٦- دين مصر العام	محمد حسين هيكل	ت : أحمد محمد حسين هيكل
٢٧- التنوع البشرى الخلاق	مقالات	ت : نخبة
٢٨- رسالة فى التسامح	جون لوك	ت : منى أبو سنه
٢٩- الموت والوجود	جيمس ب. كارس	ت : بدر الديب
٣٠- الوثنية والإسلام (ط٢)	ك. مادهو بانيكار	ت : أحمد فؤاد بلبع
٣١- مصادر دراسة التاريخ الإسلامى	جان سوفاجيه - كلود كاين	ت : عبد الستار الحلوجى / عبد الوهاب علوب
٣٢- الانقراض	ديفيد روس	ت : مصطفى إبراهيم فهمى
٣٣- التاريخ الاقتصادى لإفريقيا الغربية	أ. ج. هوبكنز	ت : أحمد فؤاد بلبع
٣٤- الرواية العربية	روجر آلن	ت : حصة إبراهيم المنيف
٣٥- الأسطورة والحداثة	بول . ب . ديكسون	ت : خليل كلفت

العنوان	المؤلف	المترجم
٣٦- نظريات السرد الحديثة	والاس مارتن	ت : حياة جاسم محمد
٣٧- واحة سيوة وموسيقاها	بريجيت شيفر	ت : جمال عبد الرحيم
٣٨- نقد الحداثة	آلن تورين	ت : أنور مغيث
٣٩- الإغريق والحسد	بيتر والكوت	ت : منيرة كروان
٤٠- قصائد حب	آن سكستون	ت : محمد عيد إبراهيم
٤١- ما بعد المركزية الأوربية	بيتر جران	ت : عاطف أحمد / إبراهيم فتحى / محمود ماجد
٤٢- عالم ماك	بنجامين باربر	ت : أحمد محمود
٤٣- اللهب المزدوج	أوكتافيو باث	ت : المهدى أخريف
٤٤- بعد عدة أصياف	ألدوس هكسلى	ت : مارلين تادرس
٤٥- التراث المغدور	روبرت ج دنيا - جون ف أ فاين	ت : أحمد محمود
٤٦- عشرون قصيدة حب	بابلو نيرودا	ت : محمود السيد على
٤٧- تاريخ النقد الأدبى الحديث (١)	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٤٨- حضارة مصر الفرعونية	فرانسوا دوما	ت : ماهر جويجاتى
٤٩- الإسلام فى البلقان	هـ . ت . نوريس	ت : عبد الوهاب علوب
٥٠- ألف ليلة وليلة أو القول الأسير	جمال الدين بن الشيخ	ت : محمد برادة وعثمانى الميلود ويوسف الأنطكى
٥١- مسار الرواية الإسبانو أمريكية	داريو بيانويبا وخ. م بينياليستى	ت : محمد أبو العطا
٥٢- العلاج النفسى التدعيمى	بيتر . ن . نوفاليس وستيفن . ج . روجسيفيتز وروجر بيل	ت : لطفى فطيم وعادل دمرداش
٥٣- الدراما والتعليم	أ . ف . ألنجتون	ت : مرسى سعد الدين
٥٤- المفهوم الإغريقى للمسرح	ج . مايكل والتون	ت : محسن مصيلحى
٥٥- ما وراء العلم	چون بولكنجهوم	ت : على يوسف على
٥٦- الأعمال الشعرية الكاملة (١)	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمود على مكى
٥٧- الأعمال الشعرية الكاملة (٢)	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمود السيد ، ماهر البطوطى
٥٨- مسرحيتان	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمد أبو العطا
٥٩- المحبرة	كارلوس مونييث	ت : السيد السيد سهيم
٦٠- التصميم والشكل	جوهانز ايتين	ت : صبرى محمد عبد الغنى
٦١- موسوعة علم الإنسان	شارلوت سيمور - سميث	مراجعة وإشراف : محمد الجوهرى
٦٢- لذّة النّص	رولان بارت	ت : محمد خير البقاعى .
٦٣- تاريخ النقد الأدبى الحديث (٢)	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٦٤- برتراند راسل (سيرة حياة)	آلان وود	ت : رمسيس عوض .
٦٥- فى مدح الكسل ومقالات أخرى	برتراند راسل	ت : رمسيس عوض .
٦٦- خمس مسرحيات أندلسية	أنطونيو جالا	ت : عبد اللطيف عبد الحليم
٦٧- مختارات	فرناندو بيسوا	ت : المهدى أخريف
٦٨- نتاشا العجوز وقصص أخرى	فالنتين راسبوتين	ت : أشرف الصباغ
٦٩- العالم الإسلامى فى أوائل القرن العشرين	عبد الرشيد إبراهيم	ت : أحمد فؤاد متولى وهويدا محمد فهمى
٧٠- ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية	أوخينيو تشانج رودريجث	ت : عبد الحميد غلاب وأحمد حشاد
٧١- السيدة لا تصلح إلا للرمى	داريو فو	ت : حسين محمود

٧٢- السياسي العجوز	ت . س . إليوت	ت : فؤاد مجلي
٧٣- نقد استجابة القارئ	چين . ب . توميكنز	ت : حسن ناظم وعلي حاكم
٧٤- صلاح الدين والمماليك في مصر	ل . ا . سيمينوڤا	ت : حسن بيومي
٧٥- فن التراجم والسير الذاتية	أندريه موروا	ت : أحمد درويش
٧٦- جاك لاكان وإغواء التحليل النفسي	مجموعة من الكتاب	ت : عبد المقصود عبد الكريم
٧٧- تاريخ النقد الأدبي الحديث ج ٣	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٧٨- العولمة : النظرية الاجتماعية والثقافة الكونية	رونالد روبرتسون	ت : أحمد محمود ونورا أمين
٧٩- شعرية التأليف	بوريس أوسبنسكي	ت : سعيد الغانمي وناصر حلاوي
٨٠- بوشكين عند «نافورة الدموع»	ألكسندر بوشكين	ت : مكارم الغمري
٨١- الجماعات المتخيلة	بندكت أندرسن	ت : محمد طارق الشرقاوي
٨٢- مسرح ميجيل	ميجيل دي أونامونو	ت : محمود السيد علي
٨٣- مختارات	غوتفريد بن	ت : خالد المعالي
٨٤- موسوعة الأدب والنقد	مجموعة من الكتاب	ت : عبد الحميد شيحة
٨٥- منصور الحلاج (مسرحية)	صلاح زكي أقطاي	ت : عبد الرازق بركات
٨٦- طول الليل	جمال مير صادقي	ت : أحمد فتحي يوسف شتا
٨٧- نون والقلم	جلال آل أحمد	ت : ماجدة العناني
٨٨- الابتلاء بالتغرب	جلال آل أحمد	ت : إبراهيم الدسوقي شتا
٨٩- الطريق الثالث	أنتوني جيدنز	ت : أحمد زايد ومحمد محيي الدين
٩٠- وسم السيف	ميجل دي ثربانتس	ت : محمد إبراهيم مبروك
٩١- المسرح والتجريب بين النظرية والتطبيق	باربر الاسوستكا	ت : محمد هناء عبد الفتاح
٩٢- أساليب ومضامين المسرح الإسبانوأمريكي المعاصر	كارلوس ميجل	ت : نادية جمال الدين
٩٣- محدثات العولمة	مايك فيذرستون وسكوت لاش	ت : عبد الوهاب علوب
٩٤- الحب الأول والصحبة	صمويل بيكيت	ت : فوزية العشماوي
٩٥- مختارات من المسرح الإسباني	أنطونيو بويرو باييخو	ت : سرى محمد محمد عبد اللطيف
٩٦- ثلاث زنبقات ووردة	قصص مختارة	ت : إدوار الخراط
٩٧- هوية فرنسا مج ١	فرنان برودل	ت : بشير السباعي
٩٨- الهم الإنساني والابتزاز الصهيوني	نماذج ومقالات	ت : أشرف الصباغ
٩٩- تاريخ السينما العالمية	ديفيد روبنسون	ت : إبراهيم قنديل
١٠٠- مساءلة العولمة	بول هيرست وجراهام تومبسون	ت : إبراهيم فتحي
١٠١- النص الروائي (تقنيات ومناهج)	بيرنار فاليط	ت : رشيد بنحدو
١٠٢- السياسة والتسامح	عبد الكريم الخطيبي	ت : عز الدين الكتاني الإدريسي
١٠٣- قبر ابن عربي يليه آياء	عبد الوهاب المؤدب	ت : محمد بنيس
١٠٤- أوبرا ماهوجني	برتولت بريشت	ت : عبد الغفار مكاوي
١٠٥- مدخل إلى النص الجامع	چيرارچينيت	ت : عبد العزيز شبيل
١٠٦- الأدب الأندلسي	د. ماريا خيسوس روبييرامتي	ت : د. أشرف علي دعدور
١٠٧- صورة الفدائي في الشعر الأمريكي المعاصر	نخبة	ت : محمد عبد الله الجعيدي

١٠٨- ثلاث دراسات عن الشعر الأندلسي	مجموعة من النقاد	ت : محمود علي مكي
١٠٩- حروب المياه	چون بولوك وعادل درويش	ت : هاشم أحمد محمد
١١٠- النساء في العالم النامي	حسنة بيجوم	ت : منى قطان
١١١- المرأة والجريمة	فرانسيس هيندسون	ت : ريهام حسين إبراهيم
١١٢- الاحتجاج الهادئ	أرلين علوي ماكليود	ت : إكرام يوسف
١١٣- راية التمرد	سادي پلانت	ت : أحمد حسان
١١٤- مسرحيتا حصاد كونجي وسكان المستنقع	وول شوينكا	ت : نسيم مجلي
١١٥- غرفة تخص المرء وحده	فرچينيا وولف	ت : سمية رمضان
١١٦- امرأة مختلفة (درية شفيق)	سينثيا نلسون	ت : نهاد أحمد سالم
١١٧- المرأة والجنوسة في الإسلام	ليلى أحمد	ت : منى إبراهيم ، وهالة كمال
١١٨- النهضة النسائية في مصر	بث بارون	ت : لميس النقاش
١١٩- النساء والأسرة وقوانين الطلاق	أميرة الأزهري سنبل	ت : بإشراف/ رؤوف عباس
١٢٠- الحركة النسائية والتطور في الشرق الأوسط	ليلى أبو لغد	ت : نخبة من المترجمين
١٢١- الدليل الصغير عن الكاتبات العربيات	فاطمة موسى	ت : محمد الجندي ، وإيزابيل كمال
١٢٢- نظام العبودية القديم ونموذج الإنسان	جوزيف فوجت	ت : منيرة كروان
١٢٣- الإمبراطورية العثمانية وعلاقاتها الدولية	نينل الكسندر وفنادولينا	ت: أنور محمد إبراهيم
١٢٤- الفجر الكاذب	چون جراي	ت : أحمد فؤاد بلبع
١٢٥- التحليل الموسيقي	سيدريك ثورپ ديڤي	ت : سمحه الخولي
١٢٦- فعل القراءة	ڤولڤانج إيسر	ت : عبد الوهاب علوب
١٢٧- إرهاب	صفاء فتحي	ت : بشير السباعي
١٢٨- الأدب المقارن	سوزان باسنيت	ت : أميرة حسن نويرة
١٢٩- الرواية الإسبانية المعاصرة	ماريا دولورس أسيس جاروته	ت : محمد أبو العطا وآخرون
١٣٠- الشرق يصعد ثانية	أندريه جوندر فرانك	ت : شوقي جلال
١٣١- مصر القديمة (التاريخ الاجتماعي)	مجموعة من المؤلفين	ت : لويس بقطر
١٣٢- ثقافة العولمة	مايك فيذرستون	ت : عبد الوهاب علوب
١٣٣- الخوف من المرايا	طارق علي	ت : طلعت الشايب
١٣٤- تشريح حضارة	باري ج. كيمب	ت : أحمد محمود
١٣٥- المختار من نقد ت. س. إليوت	ت. س. إليوت	ت : ماهر شفيق فريد
١٣٦- فلاحو الباشا	كينيث كونو	ت : سحر توفيق
١٣٧- مذكرات ضابط في الحملة الفرنسية	جوزيف ماري مواريه	ت : كاميليا صبحي
١٣٨- عالم التليفزيون بين الجمال والعنف	إيڤلينا تاروني	ت : وجيه سمعان عبد المسيح
١٣٩- پارسيڤال	ريشارد فاچنر	ت : مصطفى ماهر
١٤٠- حيث تلتقي الأنهار	هربرت ميسن	ت : أمل الجبوري
١٤١- اثنتا عشرة مسرحية يونانية	مجموعة من المؤلفين	ت : نعيم عطية
١٤٢- الإسكندرية : تاريخ ودليل	أ. م. فورستر	ت : حسن بيومي
١٤٣- قضايا التنظير في البحث الاجتماعي	ديريك لايدار	ت : عدلي السمري
١٤٤- صاحبة اللوكاندة	كارلو جولدوني	ت : سلامة محمد سليمان

١٤٥- موت أرتيميو كروث — كارلوس فوينتس — ت : أحمد حسان
١٤٦- الورقة الحمراء — ميجيل دى ليبس — ت : على عبدالرؤوف اليمبى
١٤٧- خطبة الإدانة الطويلة — تانكريد دورست — ت : عبدالغفار مكاوى
١٤٨- القصة القصيرة (النظرية والتقنية) — إنريكى أندرسون إمبرت — ت : على إبراهيم على منوفى
١٤٩- النظرية الشعرية عند إليوت وأدونيس — عاطف فضول — ت : أسامة إسبر
١٥٠- التجربة الإغريقية — روبرت ج. ليتمان — ت : منيرة كروان
١٥١- هوية فرنسا مج ٢ ، ج١ — فرنان برودل — ت : بشير السباعى
١٥٢- عدالة الهنود وقصص أخرى — نخبة من الكتاب — ت : محمد محمد الخطابى
١٥٣- غرام الفراعنة — فيولين فانويك — ت : فاطمة عبدالله محمود
١٥٤- مدرسة فرانكفورت — فيل سليتر — ت : خليل كلفت
١٥٥- الشعر الأمريكى المعاصر — نخبة من الشعراء — ت : أحمد مرسى
١٥٦- المدارس الجمالية الكبرى — جى أنبال وآلان وأوديت فيرمو — ت : مى التلمسانى
١٥٧- خسرو وشيرين — النظامى الكنوجى — ت : عبدالعزيز بقوش
١٥٨- هوية فرنسا مج ٢ ، ج٢ — فرنان برودل — ت : بشير السباعى
١٥٩- الإيديولوجية — ديفيد هوكس — ت: إبراهيم فتحى
١٦٠- آلة الطبيعة — بول إيرليش — ت: حسين بيومى
١٦١- من المسرح الإسبانى — اليخاندرو كاسونا وأنطونيو جالا — ت: زيدان عبدالحليم زيدان
١٦٢- تاريخ الكنيسة — يوحنا الأسيوى — ت: صلاح عبدالعزيز محجوب
١٦٣- موسوعة علم الاجتماع — جوردن مارشال — ت: بإشراف: محمد الجوهرى
١٦٤- شامبوليون (حياة من نور) — چان لاكوتير — ت: نبيل سعد
١٦٥- حكايات الثعلب — أ. ن أفانا سيفا — ت: سهير المصادفة
١٦٦- العلاقات بين المتدينين والعلمانيين فى إسرائيل — يشعياهو ليڤمان — ت: محمد محمود أبو غدير
١٦٧- فى عالم طاغور — رابندرانات طاغور — ت: شكرى محمد عياد
١٦٨- دراسات فى الأدب والثقافة — مجموعة من المؤلفين — ت: شكرى محمد عياد
١٦٩- إبداعات أدبية — مجموعة من المبدعين — ت: شكرى محمد عياد
١٧٠- الطريق — ميغيل دليبيس — ت: بسام ياسين رشيد
١٧١- وضع حد — فرانك بيجو — ت: هدى حسين
١٧٢- حجر الشمس — مختارات — ت: محمد محمد الخطابى
١٧٣- معنى الجمال — ولتر ت. ستيس — ت:إمام عبد الفتاح إمام
١٧٤- صناعة الثقافة السوداء — ايليس كاشمور — ت: أحمد محمود
١٧٥- التليفزيون فى الحياة اليومية — لورينزو فيلشس — ت: وجيه سمعان عبد المسيح
١٧٦- نحو مفهوم للاقتصاديات البيئية — توم تيتنبرج — ت: جلال البنا
١٧٧- أنطون تشيخوف — هنرى ترويايا — ت: حصة إبراهيم المنيف
١٧٨- مختارات من الشعر اليونانى الحديث — نخبة من الشعراء — ت: محمد حمدى إبراهيم
١٧٩- حكايات أيسوب — أيسوب — ت: إمام عبد الفتاح إمام
١٨٠- قصة جاويد — إسماعيل فصيح — ت: سليم عبد الأمير حمدان
١٨١- النقد الأدبى الأمريكى — فنسنت ب. ليتش — ت: محمد يحيى
١٨٢- العنف والنبوءة — و.ب. ييتس — ت: ياسين طه حافظ
١٨٣- چان كوكتو على شاشة السينما — رينيه چيلسون — ت: فتحى العشرى

١٨٤- القاهرة... حالمة لا تنام	هانز إيندورفر	ت: دسوقى سعيد
١٨٥- أسفار العهد القديم	توماس تومسن	ت: عبد الوهاب علوب
١٨٦- معجم مصطلحات هيجل	ميخائيل إنوود	ت:إمام عبد الفتاح إمام
١٨٧- الأرضة	بُزرْج علوى	ت:محمد علاء الدين منصور
١٨٨- موت الأدب	الفين كرنان	ت:بدر الديب
١٨٩- العمى والبصيرة	پول دى مان	ت:سعيد الغانمى
١٩٠- محاورات كونفوشيوس	كونفوشيوس	ت:محسن سيد فرجانى
١٩١- الكلام رأسمال	الحاج أبو بكر إمام	ت: مصطفى حجازى السيد
١٩٢- رحلة إبراهيم بك جـ١	زين العابدين المراغى	ت:محمود سلامة علاوى
١٩٣- عامل المنجم	بيتر أبراهامز	ت:محمد عبد الواحد محمد
١٩٤- مختارات من النقد الأنجلو-أمريكى	مجموعة من النقاد	ت: ماهر شفيق فريد
١٩٥- شتاء ٨٤	إسماعيل فصيح	ت:محمد علاء الدين منصور
١٩٦- المهلة الأخيرة	فالتين راسبوتين	ت:أشرف الصباغ
١٩٧- الفاروق	شمس العلماء شبلى النعمانى	ت: جلال السعيد الحفناوى
١٩٨- الاتصال الجماهيرى	ادوين إمرى وآخرون	ت:إبراهيم سلامة إبراهيم
١٩٩- تاريخ يهود مصر فى الفترة العثمانية	يعقوب لانداوى	ت: جمال أحمد الرفاعى وأحمد عبد اللطيف حماد
٢٠٠- ضحايا التنمية	جيرمى سيبروك	ت: فخزى لبيب
٢٠١- الجانب الدينى للفلسفة	جوزايا رويس	ت: أحمد الأنصارى
٢٠٢- تاريخ النقد الأدبى الحديث جـ٤	رينيه ويليك	ت: مجاهد عبد المنعم مجاهد
٢٠٣- الشعر والشاعرية	ألطاف حسين حالى	ت: جلال السعيد الحفناوى
٢٠٤- تاريخ نقد العهد القديم	زالمان شازار	ت: أحمد محمود هويدى
٢٠٥- الجينات والشعوب واللغات	لويجى لوقا كافاللى- سفورزا	ت: أحمد مستجير
٢٠٦- الهيولية تصنع علمًا جديدًا	جيمس جلايك	ت: على يوسف على
٢٠٧- ليل إفريقى	رامون خوتاسندير	ت: محمد أبو العطا عبد الرؤوف
٢٠٨- شخصية العربى فى المسرح الإسرائيلى	دان أوريان	ت: محمد أحمد صالح
٢٠٩- السرد والمسرح	مجموعة من المؤلفين	ت: أشرف الصباغ
٢١٠- مثنويات حكيم سنائى	سنائى الغزنوى	ت: يوسف عبد الفتاح فرج
٢١١- فردينان دوسوسير	جوناثان كلر	ت: محمود حمدى عبد الغنى
٢١٢- قصص الأمير مرزبان	مرزبان بن رستم بن شروين	ت: يوسف عبدالفتاح فرج
٢١٣- مصر منذ قدوم نابليون حتى رحيل عبدالناصر	ريمون فلاور	ت: سيد أحمد على الناصرى
٢١٤- قواعد جديدة للمنهج فى علم الاجتماع	أنتونى جيدنز	ت: محمد محمود محى الدين
٢١٥- سياحت نامه إبراهيم بيك جـ٢	زين العابدين المراغى	ت: محمود سلامة علاوى
٢١٦- جوانب أخرى من حياتهم	مجموعة من المؤلفين	ت: أشرف الصباغ
٢١٧- مسرحيتان طليعيتان	ص. بيكيت	ت: نادية البنهاوى
٢١٨- لعبة الحجلة (رايولا)	خوليو كورتازان	ت: على إبراهيم على منوفى
٢١٩- بقايا اليوم	كازو ايشجورو	ت: طلعت الشايب
٢٢٠- الهيولية فى الكون	بارى باركر	ت: على يوسف على
٢٢١- شعرية كفافى	جريجورى جوزدانيس	ت: رفعت سلام

٢٢٢- فرانز كافكا	رونالد جراى	ت: نسيم مجلى
٢٢٣- العلم فى مجتمع حر	بول فيرابنر	ت: السيد محمد نفادى
٢٢٤- دمار يوغسلافيا	برانكا ماجاس	ت: منى عبدالظاهر إبراهيم السيد
٢٢٥- حكاية غريق	جابرييل جارثيا ماركث	ت: السيد عبدالظاهر السيد
٢٢٦- أرض المساء وقصائد أخرى	ديفيد هربت لورانس	ت: طاهر محمد على البربرى
٢٢٧- المسرح الإسبانى فى القرن السابع عشر	موسى ماردينا ديف بوركى	ت: السيد عبدالظاهر عبدالله
٢٢٨- علم الجمالية وعلم اجتماع الفن	جانيت وولف	ت:مارى تيريز عبدالمسيح وخالد حسن
٢٢٩- مأزق البطل الوحيد	نورمان كيجان	ت: أمير إبراهيم العمرى
٢٣٠- عن الذباب والفئران والبشر	فرانسواز جاكوب	ت: مصطفى إبراهيم فهمى
٢٣١- الدرافيل	خايمى سالوم بيدال	ت: جمال أحمد عبدالرحمن
٢٣٢- ما بعد المعلومات	توم ستينر	ت: مصطفى إبراهيم فهمى
٢٣٣- فكرة الاضمحلال	أرثر هومان	ت: طلعت الشايب
٢٣٤- الإسلام فى السودان	ج. سبنسر تريمنجهام	ت: فؤاد محمد عكود
٢٣٥- ديوان شمس تبريزى ج١	جلال الدين مولوى رومى	ت: إبراهيم الدسوقى شتا
٢٣٦- الولاية	ميشيل تود	ت: أحمد الطيب
٢٣٧- مصر أرض الوادى	روبين فيدين	ت: عنايات حسين طلعت
٢٣٨- العولمة والتحرير	الانكتاد	ت: ياسر محمد جادالله وعربى مدبولى أحمد
٢٣٩- العربى فى الأدب الإسرائيلى	جيلارافر - رابوخ	ت: نادية سليمان حافظ وإيهاب صلاح فايق
٢٤٠- الإسلام والغرب وإمكانية الحوار	كامى حافظ	ت: صلاح عبدالعزيز محجوب
٢٤١- فى انتظار البرابرة	ج . م كويتز	ت: ابتسام عبدالله سعيد
٢٤٢- سبعة أنماط من الغموض	وليام إمبسون	ت: صبرى محمد حسن عبدالنبى
٢٤٣- تاريخ إسبانيا الإسلامية جـ١	ليفى بروفنسال	ت: على عبدالرؤوف البمبى
٢٤٤- الغليان	لاورا إسكيبيل	ت: نادية جمال الدين محمد
٢٤٥- نساء مقاتلات	إليزابيتا أديس	ت: توفيق على منصور
٢٤٦- مختارات قصصية	جابرييل جارثيا ماركث	ت: على إبراهيم على منوفى
٢٤٧- الثقافة الجماهيرية والحداثة فى مصر	والتر إرمبريست	ت: محمد طارق الشرقاوى
٢٤٨- حقول عدن الخضراء	أنطونيو جالا	ت: عبداللطيف عبدالحليم عبدالله
٢٤٩- لغة التمزق	دراجو شتامبوك	ت: رفعت سلام
٢٥٠- علم اجتماع العلوم	دومنيك فينيك	ت: ماجدة محسن أباظة
٢٥١- موسوعة علم الاجتماع (ج٢)	جوردن مارشال	ت: بإشراف: محمد الجوهرى
٢٥٢- رائدات الحركة النسوية المصرية	مارجو بدران	ت: على بدران
٢٥٣- تاريخ مصر الفاطمية	ل. أ. سيمينوفا	ت: حسن بيومى
٢٥٤- الفلسفة	ديف روبنسون وجودى جروفز	ت: إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٥- أفلاطون	ديف روبنسون وجودى جروفز	ت: إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٦- ديكارت	ديف روبنسون ، كريس جرات	ت: إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٧- تاريخ الفلسفة الحديثة	وليم كلى رايت	ت: محمود سيد أحمد
٢٥٨- الغجر	سير أنجوس فريزر	ت: عُباده كُحيلة
٢٥٩- مختارات من الشعر الأرمنى عبر العصور	اقلام مختلفة	ت: فاروجان كازانجيان

٢٦٠– موسوعة علم الاجتماع ج٣	جوردن مارشال	ت: باشراف: محمد الجوهرى
٢٦١– رحلة فى فكر زكى نجيب محمود	زكى نجيب محمود	ت: إمام عبد الفتاح إمام
٢٦٢– مدينة المعجزات	إدوارد مندوثا	ت: محمد أبو العطا عبد الرؤوف
٢٦٣– الكشف عن حافة الزمن	چون جريبن	ت: على يوسف على
٢٦٤– إبداعات شعرية مترجمة	هوراس/ شلى	ت: لويس عوض
٢٦٥– روايات مترجمة	أوسكار وايلد وصموئيل جونسون	ت: لويس عوض
٢٦٦– مدير المدرسة	جلال آل أحمد	ت: عادل عبدالمنعم سويلم
٢٦٧– فن الرواية	ديفيد لودج	ت: ماهر البطوطى
٢٦٨– ديوان شمس تبريزى ج٢	جلال الدين الرومى	ت: إبراهيم الدسوقى شتا
٢٦٩– وسط الجزيرة العربية وشرقها ج١	وليم چيفور بالجريف	ت: صبرى محمد حسن
٢٧٠– وسط الجزير العربية وشرقها ج٢	وليم چيفور بالجريف	ت: صبرى محمد حسن
٢٧١– الحضارة الغربية	توماس سى. باترسون	ت: شوقى جلال
٢٧٢– الأديرة الأثرية فى مصر	س. س والترز	ت: إبراهيم سلامة
٢٧٣– الاستعمار والثورة فى الشرق الأوسط	جوان أر. لوك	ت: عنان الشهاوى
٢٧٤– السيدة باربارا	رومولو جلاجوس	ت: محمود مكى
٢٧٥– ت. س إليوت شاعرا وناقدا وكاتبا مسرحيا	أقلام مختلفة	ت: ماهر شفيق فريد
٢٧٦– فنون السينما	فرانك جوتيران	ت: عبد القادر التلمسانى
٢٧٧– الچينات: الصراع من أجل الحياة	بريان فورد	ت: أحمد فوزى
٢٧٨– البدايات	إسحق عظيموف	ت: ظريف عبدالله
٢٧٩– الحرب الباردة الثقافية	ف.س. سوندرز	ت: طلعت الشايب
٢٨٠– من الأدب الهندى الحديث والمعاصر	بريم شند وآخرون	ت: سمير عبدالحميد
٢٨١– الفردوس الأعلى	مولانا عبد الحليم شرر الكهنوى	ت: جلال الحفناوى
٢٨٢– طبيعة العلم غير الطبيعية	لويس ولبيرت	ت: سمير حنا صادق
٢٨٣– السهل يحترق	خوان رولفو	ت: على البمبى
٢٨٤– هرقل مجنونا	يوريبيدس	ت: أحمد عتمان
٢٨٥– رحلة الخواجة حسن نظامى	حسن نظامى	ت: سمير عبد الحميد
٢٨٦– رحلة إبراهيم بك ج٣	زين العابدين المراغى	ت: محمود سلامة علاوى
٢٨٧– الثقافة والعولمة والنظام العالمى	انتونى كنج	ت: محمد يحيى وآخرون
٢٨٨– الفن الروائى	ديفيد لودج	ت: ماهر البطوطى
٢٨٩– ديوان منجوهرى الدامغانى	أبو نجم أحمد بن قوص	ت: محمد نور الدين عبدالمنعم
٢٩٠– علم اللغة والترجمة	جورج مونان	ت: أحمد زكريا إبراهيم
٢٩١– المسرح الإسبانى فى القرن العشرين ج١	فرانشسكو رويس رامون	ت: السيد عبد الظاهر
٢٩٢– المسرح الإسبانى فى القرن العشرين ج٢	فرانشسكو رويس رامون	ت: السيد عبد الظاهر
٢٩٣– مقدمة للأدب العربى	روجر آلان	ت: نخبة من المترجمين
٢٩٤– فن الشعر	بوالو	ت: رجاء ياقوت صالح
٢٩٥– سلطان الأسطورة	جوزيف كامبل	ت: بدر الدين حب الله الديب
٢٩٦– مكبث	وليم شكسبير	ت: محمد مصطفى بدوى
٢٩٧– فن النحو بين اليونانية والسريانية	ديونيسيوس ثراكس – يوسف الأهوانى	ت: ماجدة محمد أنور

العنوان	المؤلف	المترجم
٢٩٨- مأساة العبيد	أبو بكر تفاوابليوه	ت: مصطفى حجازى السيد
٢٩٩- ثورة التكنولوجيا الحيوية	جين ل. ماركس	ت: هاشم أحمد فؤاد
٣٠٠- أسطورة برومـــثـيـــوس فى الأدبين الإنجليزى والفرنسى مج١	لويس عوض	ت: جمال الجزيرى وبهاء چاهين وإيزابيل كمال
٣٠١- أسطورة برومـــثـيـــوس فى الأدبين الإنجليزى والفرنسى مج٢	لويس عوض	ت: جمال الجزيرى و محمد الجندى
٣٠٢- فنجنشتين	جون هيتون وجودى جروفز	ت: إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٣- بوذا	جين هوب وبورن فان لون	ت: إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٤- ماركس	ريوس	ت: إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٥- الجلد	كروزيو مالابارته	ت: صلاح عبد الصبور
٣٠٦- الحماسة - النقد الكانطى للتاريخ	چان - فرانسوا ليوتار	ت: نبيل سعد
٣٠٧- الشعور	ديفيد بابينو	ت: محمود محمد أحمد
٣٠٨- علم الوراثة	ستيف جونز	ت: ممدوح عبد المنعم أحمد
٣٠٩- الذهن والمخ	أنجوس چيلاتى	ت: جمال الجزيرى
٣١٠- يونج	ناجى هيد	ت: محيى الدين محمد حسن
٣١١- مقال فى المنهج الفلسفى	كولنجوود	ت: فاطمة إسماعيل
٣١٢- روح الشعب الأسود	وليم دى بويز	ت:أسعد حليم
٣١٣- أمثال فلسطينية	خابير بيان	ت: عبدالله الجعيدى
٣١٤- الفن كعدم	جينس مينيك	ت: هويدا السباعى
٣١٥- جرامشى فى العالم العربى	ميشيل بروندينو	ت: كاميليا صبحى
٣١٦- محاكمة سقراط	آ.ف. ستون	ت: نسيم مجلى
٣١٧- بلا غد	شير لايموفا- زنيكين	ت: أشرف الصباغ
٣١٨- الأدب الروسى فى السنوات العشر الأخيرة	نخبة	ت: أشرف الصباغ
٣١٩- صور دريدا	جايتر ياسبيفاك وكرستوفر نوريس	ت: حسام نايل
٣٢٠- لمعة السراج فى حضرة التاج	مؤلف مجهول	ت: محمد علاء الدين منصور
٣٢١- تاريخ إسبانيا الإسلامية ج٢	ليفى برو فنسال	ت: نخبة من المترجمين
٣٢٢- وجهات غربية حديثة فى تاريخ الفن	دبليو يوجين كلينباور	ت: خالد مفلح حمزه
٣٢٣- فن الساتورا	تراث يونانى قديم	ت: هانم سليمان
٣٢٤- اللعب بالنار	أشرف أسدى	ت: محمود سلامة علاوى
٣٢٥- عالم الآثار	فيليب بوسان	ت: كرستين يوسف
٣٢٦- المعرفة والمصلحة	جورجين هابرماس	ت: حسن صقر
٣٢٧- مختارات شعرية مترجمة	نخبة	ت: توفيق على منصور
٣٢٨- يوسف وزليخا	نور الدين عبد الرحمن بن أحمد	ت: عبد العزيز بقوش
٣٢٩- رسائل عيد الميلاد	تد هيوز	ت: محمد عيد إبراهيم
٣٣٠- كل شىء عن التمثيل الصامت	مارفن شبرد	ت: سامى صلاح
٣٣١- عندما جاء السردين	ستيفن جراى	ت: سامية دياب
٣٣٢- القصة القصيرة فى إسبانيا	نخبة	ت: على إبراهيم على منوفى
٣٣٣- الإسلام فى بريطانيا	نبيل مطر	ت: بكر عباس

٣٣٤- لقطات من المستقبل — أرثر.س كلارك — ت: مصطفى فهمى
٣٣٥- عصر الشك — ناتالى ساروت — ت: فتحى العشرى
٣٣٦- متون الأهرام — نصوص قديمة — ت: حسن صابر
٣٣٧- فلسفة الولاء — جوزايا رويس — ت: أحمد الأنصارى
٣٣٨- قصص قصيرة من الهند — نخبة — ت: جلال السعيد الحفناوى
٣٣٩- تاريخ الأدب فى إيران جـ٣ — على أصغر حكمت — ت: محمد علاء الدين منصور
٣٤٠- اضطراب فى الشرق الأوسط — بيرش بيربيروجلو — ت: فخرى لبيب
٣٤١- قصائد من رلكه — راينر ماريا رلكه — ت: حسن حلمى
٣٤٢- سلامان وأبسال — نور الدين عبدالرحمن بن أحمد — ت: عبد العزيز بقوش
٣٤٣- العالم البرجوازى الزائل — نادين جورديمر — ت: سمير عبد ربه
٣٤٤- الموت فى الشمس — بيتر بلانجوه — ت: سمير عبد ربه
٣٤٥- الركض خلف الزمن — بونه ندائى — ت: يوسف عبد الفتاح فرج
٣٤٦- سحر مصر — رشاد رشدى — ت: جمال الجزيرى

رقم الإيداع : ٢٠٠٥/٤٧٠٦

شركة الأمل للطباعة والنشر
(مورافيتلى سابقاً)